طائر خفيف

محمد إبراهيم طه

إلى سعاد محمد عبد الرحمن

.. دائما تركضين فوق عشب ندي، تحت سماء كفت لتوها عن المطر، حولك عصافير صغيرة ملونة، بفستانك الأبيض المبتل وشعرك المنسدل للخلف، باتجاه شمس توشك أن تسطع.. وكلما ركضت خلفك، منعتني قدماي المغروستان داخل هذا المثلث من النجيل المترب.

أما محمود الورداني،

وشعبان يوسف،

فلا أقل من أعلن محبتي لكما هكذا على الملأ.

القسم الأول



هذه الطقوس اليومية

لم يكن الجنون قد أصابني بعد وأنا أبحث عن أحد يرميني بالرصاص، أو سيارة مسرعة فأرتمي أمامها، أو قبر مهجور أدفن نفسي فيه بالحياة، فلا أجد سوى إخراج قلبي ــ ذلك الغض ــ من مكانه على يدي، وأقطعه بسكين وأنا أبكي تحت الصورة التي في الإطار.

ولم يكن في الأمر ما يشير إلي ما حدث، وأنا أسير على طقوسي اليومية كقطار لا يغادر قضبانه، منذ استيقاظي في الصباح أول ما أستيقظ، على صورة لأمي "أبيض وأسود" في إطار على جدار الحجرة توارثتها منذ زمن، فاعتدت أن أنحني أمامها، وأمد يدي لأقبل ظهر يدها الممدودة على ركبتها متى تفتحت عيني، مستشعراً في وجهها الملتف بالسواد ذلك الدفء والرضا، ثم مروري اليومي على حانوت بالشارع، يعاملني صاحبه برقة ومودة. ألقي تحية الصباح حارة، فيردها بود حقيقي، ويناولني بشكل آلي ــ كأنه ينتظرني ــ الأهرام وعلبة السجائر ومشط الكبريت وعلبة المناديل، ويجهز لي في عودتي، ككل يوم، نصيبي من الجبن والبقالة ليوم واحد. استرحت لأنه يعرفني جيداً ويعرف ما أفكر فيه ربما قبل أن أطلبه.

أُصر ــ ليس لضيق الوقت أو اللهوجة ــ أن أنـــزل وحـــذائي غير ملمع، لأمر علي عفيفي الجالس بـــصندوقه علـــى ناصـــية الشارع. أعبر له الطريق من الحانوت فيتلقفني ويبتسم. أعلم أنـــه يستفتح النهار بهذا الحذاء. وجرياً على طقوسي المعتـــادة، أضـــع قدمي بالحذاء على الصندوق، أطالع عناوين الجريـــدة والـــصفحة الأخيرة، دون أن أفكر يوماً كأي أحد أن أشتري من الحانوت ذلك الورنيش السائل والسريع، لأنه يجذبني بهذا الشوق في نظرتـــه، وابتسامته الودودة كأنه لم يرني منذ زمن، ورفضه المتكـــرر أن يتقاضى أجره، وإصراري الدائم الذي يشعرني أن تلك الـــسيجارة تعوقني فأجذب منها نفساً سريعاً وأرميها في منتصفها، لأنه بعـــد أن يدهن و يلمع ويجس ببطن ساعده ــ ذلك الذي اسمرّ ــ جلـــد الحذاء، يكون بالفعل قد أدى ما يستحق عليه الأجر، فيبوسه عـــدة مرات قبل أن يضعه في جيبه.

ولعل أكثر أسباب فشلي في الخروج عن هذه الطقوس، كـــوب القهوة الإجباري الذي أشربه أمام دكان صديقي صابر للـــدواجن، الذي يجذب كرسياً لي وينادي على أي ولد من المقهـــى المقابـــل لإعداد القهوة في كوب، حتى أن صاحب المقهى اعتاد أن يبدأ في صنعها حال انتهائي من عفيفي وقبل توجهي إلى دكـــان صـــابر. صرت أهم أصدقاء صابر منذ اكتشفت إصابته بالدرن الرئـــوي،

وصار يتوقع أن تفاجئه نوبة نزيف من الرئة فيموت على إثرها كأخيه الأصغر رجب، لكنني كنت أطمئنه كل يوم بنفسي.

توطدت الصداقة، وأصبح من طقوسي اليومية أن أنظر إلي الشرفة المقابلة، فأجد يمامة تنشر في هدوء كل صباح بطانية، أو تلم هدوماً منشورة من الأمس، أو تروي وروداً في أصص فخار مثبتة بحديد الشرفة، نضبط أنفسنا متلبسين بالنظر في وقت واحد: هي إلى الكرسي الذي يجذبه صابر لي أمام الدكان، وأنا إلي وجهها الملائكي وشعرها المسترسل على صدرها النافر تحت ثوبها المنزلي، فتدخل مسرعة ومحرجة.

لا أعرف منذ متى بالتحديد بدأت أحافظ على طقوسي اليومية تلك قبل ذهابي إلي المستشفى، يشدني إليها شيء ما لا أستطيع الفكاك منه، حتى بعد أن مرض صابر بالفعل وتدهورت حالته وقال بعتاب: "مش قلت لك؟". كنت أمر على سريره كل يوم مهوِّناً الأمر بينما أقرأ في عينيه ما لا تقوله شفتاه، فأربت كتفه وآخذ بالي من أسرته وأطفاله الذين اعتادوا جلوسي الصباحي لدقائق على الكرسي المقابل للمقهى والشرفة، وكنت أختلس النظر إلى باقي الهدوم المنشورة التي تركتها ودخلت، دون أن أنتبه إلى أنها التي تعبر الطريق إلا من بصتيها اللتين سددتهما نحوي بينما تسدل الإيشارب على الشعر الذي كان مكشوفاً في الشرفة منذ

قليل وتحكم العقدة على الرقبة والصدر، ولم أعرف من حبات العرق النظيفة على الوجه والرقبة إن كانت "صباح الخير" لأم صابر فقط أم للجميع، حتى سألتها إن كانت قد انتهت من تجهيز طلبها، فعرفت وتسارعت دقات قلبي الذي أحس أن سؤالها الخجول ربما يخصني: "الأستاذ صابر عامل إيه دلوقت؟" قلت: الحمد لله، يومان ويخرج، فأخذت الفرخة وعبرت الطريق ولم تظهر في الشرفة.

لم يكن ما اعتراني من نوبات الضيق والبكاء لأن صابر مات لسبب آخر غير الذي كان يتوقعه، ولا نظرات التسليم في عينيه وهو يوصيني بطفلاته الثلاث، ولم تكن هذه الدموع التي في عيني لظهور اليمامة في الشرفة هذا الصباح بصحبة زوج كان غائباً وطفلة صغيرة، أو لأنني اكتشفت هذا الصباح فقط أن عفيفي، ذلك الجالس علي ناصية الشارع بصندوقه الخشبي، له أب فُقد في سبعة وستين، ولم يكن قد أصابني الجنون بعد حين اكتشفت ذلك الاكتشاف المفجع أن صاحب الحانوت والذي أتعامل معه بانتظام من ثلاثة وعشرين عاماً، كان هو قاتل أبي.

لم يكن الجنون قد أصابني بعد، حين كنت أبكي بالفعل وأنا أبحث عن أحد يرميني بالرصاص، أو سيارة مسرعة فأرتمي أمامها، أو قبر مهجور أدفن فيه نفسي بالحياة فلا أجد، فأستخرج

قلبي ــ ذلك الذي لم يعد غضًّا ــ من مكانه على يـــدي وأقطِّعـــه بسكين وأنا أحدق في صورة أمي التي في الإطار، لأكتشف للمرة الأولى وأنا أجهش بالبكاء، حين ضمتني يدها الحانية التي امتـــدت من الإطار لتخمش رأسي وتربت كتفي، أن الكتابة الصغيرة تحت الصورة التي في الإطار تقول إنها تحية: أرملة الزعيم.

هيـــــمة

أخرجني اتصال سعاد من استغراقي في تأملهم من أعلى، وهم في ذات البقعة، يتابعون في حيرة كلام زينهم المتدفق وأصـــابعه التي تشير: تذاكر هنا.. سكر وأسنان وعضم ومعمل كده.. نــسا وأطفال وجراحة فوق. يتخلصون رويداً مـــن القلـــق، وتـــستحيل الحيرة على ملامحهم المريضة إلى ألفة عندما يـــسلمون التـــذاكر للممرضات، ويمضون الوقت ــ إلي أن تُنَادَى أسماؤهم ــ فـــي التطلع من الطرقة إلى الفناء والمبنـــى ذي الطـــابقين والـــسلالم، ويعيدون قراءة اللافتة الرئيسية وملصقات التوعية الصحية. كـــان بالإمكان تمييزهم بسهولة من بين أولئك الـــذين ينحرفـــون بعـــد البوابة رأساً إلى التذاكر ثم يتوجهون بآلية إلى أهدافهم.

لابد أن سعاد كانت تتصل من الشارع، لأنها قالت إنهـــا الآن ذاهبة إلي عملها، وإنها أخذت هيمة إلى المدرسة، وظلـــت معـــه حتى دخل الفصل. كانت تُلمِّح إلى أن أمر عليه وأصـــطحبه فـــي عودتي إلى البيت. نبرتها المتعجلـــة وضـــغطها علـــى مخـــارج الحروف كانت تشي بأن عملي الذي قد يمتد إلى ما بعد المواعيـــد

الرسمية، مهما كان عدد الحالات، لابد أن ينتهي اليــوم مبكــراً، فالقيامة لن تقوم إذا لم أستمع باستفاضة لشكوى كل مريــضة، أو تدخلت بالمقاطعة لتغيير مجرى الكلام، أو كففت عن الاستفــسار عن أشياء أرى دائماً أنها هامة، ودخلت مــن ثــم إلــى وصــف العلاج. تصاعد الصهد من خدي الأيسر، وانتفخ كرغيف، حتــى أن هويدا سألتني بشكل مباشر، فقلت باقتضاب:

ــ أصل أنا قلقان على الواد.

ولابد أنني كنت قلقاً بالفعل، لأنني كلمــا قمــت إلــي ســرير الفحص مع حالة، كنت ألبس نظارة الخــروج أو أجمــع بــشكل وهمي مفاتيحي وهاتفي المحمول، أو أضع القلم في جيب الــسترة الداخلي. تتعجب هويدا، فأعيد كل شيء إلي مكانــه متنهــدا: إن الولد طيب جداً يا هويدا وهذا أول يوم يخرج فيه وحده، ولم تقــل أمه أين أجلسته. قالت هويدا وهي تضع التذاكر أمامي، إنه علــى كل حال في الفصل الآن وأمه أوصلته، ولن ينــصرف الأطفــال قبل الواحدة من المدرسة. تنهدت مرة أخرى وأمسكت التذكرة:

ــ خير يا ستي .. مالك؟

كان فناء "الوحدة العربية" واسعاً جداً، والنخلتان اللتان حــدثني عنهما فهمي واقفتين، متجاورتين ترتكز عليهما سبورة خــشبية، وبالقرب منهما سارية للعلم، وأشجار الجازورين داخــل الــسور،

والعيال يتناقصون كلما نادى المعلم أسماءهم من الكشف الذي في يده، والفناء يصير أكثر اتساعاً بينما أتأمل النخلتين وأشجار الجازورين وصخب العصافير على العلم والجرس وزجاج الفصول المدهون بالأزرق تقطعه علامة إكس. هوى الكف على صدغي، فدار الفناء بالأشجار وارتطم النخيل بالشبابيك وانبثقت النار من وجهي. كان الكف مباغتاً والفناء خالياً إلا منِّي ومنه والكشف الذي بيده:

ـــ يا حمار مش اسمك محمد زفت؟

تصاعدت أسراب النمل إلى صدغي وأنا أطل على الفناء، تلك البقعة التي خلف البوابة، والتي تشهد حيرتهم بين الدخول يميناً أو يساراً أو إلى الأمام، والتي تشهد أكثر ما تشهد إشارات زينهم لهم في كل الاتجاهات ولهجته التي صارت كنداءات الباعة غامضة وسريعة. يدهشني ذلك الحاجز الذي لا ينمحي تماماً إلا بخروجهم من هذه البوابة، إذ يتحدثون بوضوح وانطلاق على طول الطريق الزراعي، وكلما تخطيتهم أجدهم في المرآة يشيرون بحيوية وهم يخبئون رءوسهم تحت مظلاتهم المفرودة من الشمس، وحين أسمع لغطهم الحيوي أتأكد مرة أخرى كم نحن مقبضون رغم معاطفنا البيضاء، تماماً كما أن هذا المكان جهمٌ ومقبضٌ. قالت هويدا:

ــ التهاب اللي ف وش حضرتك ده واللا حساسية؟

لم يكن ثمة سوى دكة أخيرة، أوصلتني إليها الدفعة التي أعقبت الصفعة، والتي كانت قوية بما يكفي لأن أتعثر وأكاد أنكفئ في اندفاعي من باب الفصل الذي عرفت فيما بعد أنه فصلي، ماراً بين الدكك المشغولة متخبطا في عيون كثيرة تحدق في دهشة: خدوه جنبكم رابع. اتسعت الدكة علي مضض بما يسمح لوضع فخذي الأيسر. التصقت بالولد، لكنني كنت منتبها إلى زفراته ولكماته من تحت الدكة في جنبي وهمسه المتكرر بضيق "اتّاخر كده".

مر الدكتور عبد العال من أمام الحجرة، وألقى التحية على عجل، ودخل بجسمه من الباب:

ــ شفت يا سيدي العيال البايظين.. شدُّوا لنا أعصابنا والآخر..

قاطعته مبتسماً: ــ يتغلبوا واحد/ صفر!

لم أتفرج على المباراة، لكنني كنت أعرف هذه النتيجة مسبقاً، ليس تكهُّناً، لكنني منذ اللحظات الأولى كنت متيقناً أننا سنُهزم، ليس تكهناً ولا حدساً، إنما يقين خالص، فلقد كنت أعرف من نزول اللاعبين إلى الملعب، وأول ثلاث دقائق كيف ستنتهي المباراة، فأغلقت التليفزيون.

لم يعد لدي شك في أن سعاد كانت تلمِّح إلى انتهاء دورها عند هذا الحد، لأتحمل مسئوليتي في إعادة إبراهيم إلى البيت، فقد كانت مكالمتها متعجلة ومختصرة. لم تكن مستعدة ــ فيما يبدو ــ للخوض فيما إذا كانت قد دخلت بالولد إلى الفصل واطمأنَّتْ على جلوسه، فحملت أشيائي مرة أخرى وسرت باتجاه الباب منتوياً الاعتذار لمريضاتي، لأنني قلق جداً على الولد، والذي لا أعرف في أية دكة جلس، لكن هويدا أكدت لي أنه جلس في المنتصف في الدكة الثالثة، وقالت إنه في أولى تاني، ألم تقل لك المدام ذلك؟ فتحسست خدي الملتهب، وتراجعت عن الخروج ونظرت في التذكرة التالية وقلت لها:

ــ أصل انتي ما تعرفيش غلاوة إبراهيم عندي.

جاء بعد خمسة عشر عاما من موت يارا. سبقته فترة من العقم غير معروف السبب، ثم جاء هكذا وحده، دون علاج، وبعد أن توقفت عن إعطاء سعاد العلاج، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أغير سياستي في علاج العقم. مسكت التذكرة وقلت: خير يا ست الكل؟

ــ متجوزة من خمستاشر سنة وماعنديش أطفال.

سقطت عن حافة المقعد مرة واحدة بينما كان المعلم يدير ظهره ليكتب الحروف، فالتفت عيال الفصل كله. أغمضت عيني. لم تستطع قدماي تحمل ذلك الوضع فسقطت، وتناثرت أدواتي.

لفترة ظللت راقداً على الأرض متوقِّعاً نزول العصا على جسدي من المعلم الذي جاء، لكنني حين فتحت عيني وجدتها تهوي على جنب الولد الذي بجواري:

ــ يقعد ازاي كده؟ اتّاخر له!

تزحزح الولد لكن كوعه لم يكف عن الزغد، وبدا أن الأستاذ لمحه، فأعاد في نهاية الحصة ضرب الثلاثة وبص لي:

ــ لو زنقوك قل لي!

لا أعرف كيف مر اليوم والثلاثة يهددونني بعد الانصراف ويجبرونني على الوقوف في الفترات التي بين الحصص، وكنت كلما أنظر إليهم تعتريني الهيبة والخوف، متمنيا ألا يدق الجرس، لكنه دق دقته الطويلة وهاج العيال وعكس ما كنت أرتب للخروج متأخراً، كان الثلاثة يدفعونني للخروج قبلهم، وكنت قد رأيت في عيونهم ذلك التصميم الغريب علي إيذائي، فتسارعت دقات قلبي وجف ريقي. خارج الفصل، وفي الفناء بدأ الضرب، متفرقاً، وأنا أتَّقي ضرباتهم بالإسراع لكنهم كانوا يتتبعونني أينما ذهبت. كان الأمر مثيراً للرعب وصدغي ما زال يهب صهداً من صفعة الصباح الحادة، والدفعة العنيفة في ظهري، ولم يكن أمامي سوى ما فعلت، لا إرادياً انطلقت ساقاي إلى الأمام وبأقصى سرعة، يحدوني أمل في الإفلات من ذلك العدوان، غير أن وقع أقدامهم

تسارع خلفي. جذبوا الشنطة فتعثرتُ، وجاءتْ لكماتهم من أكثر من اتجاه. من الذي لمَّ كتبي المبعثرة؟ ومن الذي أخذني إلى الدار، ومن الذي جعلني أمرض في اليوم التالي وأتباطأ في النوم كي لا أذهب إلى المدرسة، فتصر أمي على الذهاب، فأذهب وحدي متأخراً وما أن أدخل من البوابة حتى أتوه ويتسع الفناء وأتقافز أمام لسعات العصي التي تستحثني على الإسراع، دون أن أدري وبعد آخر عصا من معلم الفصل أجد طريقي مفتوحاً إلى الدكة الأخيرة، الجالس عليها ثلاثة الأمس دون أن يحاول أحدهم أن يتيح لي مساحة، ووسط صرخة الأستاذ: "اجلس يا حمار" أتخيل أنني أجلس يلاصق جنب مقعدتي حرف المقعد لا أكثر.

ــ دول عيال ولاد كلب ما يستاهلوش، حرقوا دمنا وخلاص.

كان عبد العال يطل بجسمه من النافذة وهو ذاهب ليصلي الظهر، فابتسمت. كنت قد ركزت على نظراتهم وهم يدخلون أرض الملعب، وبطئهم في قراءة الفاتحة وهم في وسط الملعب قبل البدء، وجريهم بالكرة وهم ينظرون في الأرض، وشعورهم بالخيبة لحظة التسديد البعيد، فأغلقت التليفزيون. التفت عبد العال وقال معلقا على ابتسامتي اللامبالية: يا رايق انت! ولم يكن ما قاله صحيحاً، فأنا منذ فترة طويلة فقدت رغبتي في التفرج على المباريات، فقط الدقائق الأولى، حيث ينصرف اهتمامي كلياً إلى

المشاعر التي تلي المباراة، لحظات الخروج من الملعب، النظرات المتحسرة وهم يتقون بآذانهم صيحات الجماهير، والهروب كأسرى من تتبع الكاميرات والفلاشات، حيث لا معنى حقيقي لكلمة مثل: الرياضة غالب ومغلوب. نصحتُ السيدة بالامتناع عن العلاج لثلاثة أشهر، وذكّرتُ عبد العال برأيي الذي يعرفه:

ــ مش التعادل برضه كان احسن؟

كان قد ملّ من عشقي لحالات التعادل، وما يليها من حالة غامضة من الرضا، بين الفرح والحزن، وكنت أعرف أنه سيشيح بيديه خلف رأسه وهو خارج من البوابة بضيق ويقول:

ــ والنبي كفاية فلسفة!

لم يكن هناك من بُد ــ تحت وطأة الهواجس التي ظلت مسيطرة عليّ طول الوقت ــ أن أقرر الانصراف معتذراً للناس، الذين لاحظوا أنني قلق بالفعل، وأن أذهب إلى الوحدة العربية التي كنت بها قبل أربع وثلاثين سنة، قبل أن ينتهي اليوم الدراسي، لأرى بعيني إن كان إبراهيم يجلس على دكة في الفصل أم لا. في خطوات قليلة، اجتزت الفناء، ارتفع كثيراً عن الماضي أو غاصت الفصول ذات الطابق الواحد، ولم تكن النخلتان عاليتين كما كنت أتوقع، وحل محل سور الجازورين صف من نباتات

الجارونيا المورقة، وتشابكت أغصان الياسمين في قــوس أعلـــى البوابة، وبدت شرفات البيوت المطلة على الفنـــاء قريبـــة جـــداً، وحين دخلت إلى ذات الفصل، دمعت عينــاي، ففـــي ذات الدكـــة الأخيرة، كنت أراه يجاهد كي يضع ساقه النحيفة بجوار الثلاثـــة الذين بدوْا كأنهم استراحوا لهذا الوضع. كنت أكثر من شعر بآلام هيمة وأنا أوقظه في صباح اليوم التالي، حين وجـــدت حرارتـــه مرتفعة، وكان صامتاً، وعيناه تنظران نحوي بتوســـل وضـــعف، ووحدي كنت الذي أعرف ــ لا أمه ــ أنه لا يود الـــذهاب إلـــى الوحدة العربية في اليوم الثاني.

طعم الليمون

تأتيني يارا دائماً بعينيها الواسعتين صريحة، ووجهها القمحي بريئاً وضحوكاً، تركض حول أشجار الليمون وتمرح منتشية. تقول: امسك يدي. وتشدني، فأبدو سعيداً وعجوزاً ومرهقاً. أُخرج من جيبي مشطاً وشريطاً أصفر لألمّ شعرها المنسدل فأحس بقلبها الصغير فرحاً ومتقافزاً. تعاود الاختباء بين الأشجار وتقول: امسك يدي يا بابا. وحين يستحيل الجو مظلماً، أسمع صوتها مرتاعاً وبعيداً، وتكون يدها الصغيرة قد انسحبت لتوها من بين أصابعي. أقبض يدي بشدة وأصرخ: يارا.. يارا. فتهزني زوجتي وتضيء النور لتناولني الكوب. أنتبه محدقاً في الماء، أرده بإرهاق، فيما أكون محتاجاً لكوب من الليمون. تحكم الغطاء حول نفسها وتعود للنوم. في الصباح قالت إن صحتي لن تتحمل ذلك، وإنني طبيب وأعلم أكثر منها أنني ربما احتجت إلى استشارة طبيب نفسي، إذ لا يمكن لأي شخص أن يستهلك كل هذا الليمون.

وبكت، لأن رائحة الليمون لم يعد بالإمكان إزالتها مــن الأطبــاق والأكواب والملابس، وأن يارا التي تجيئني كل ليلة ماتــت قبــل السبوع لسبب لا نعرفه، وأن خمسة عشر عاماً قــد مــرّت ولــم يمنحنا الله أطفالاً، فلماذا لا أريد أن أصدق. بكت بانفعــال دون أن تفطن إلى وجود صديقي الذي استأذن مرتبكاً، وعند الباب التفــت مؤكداً:

ــ الغدا يوم الخميس عندنا.. وفاء مُصرّة.. لا تنسوا.

وفاء طفلته الوحيدة، في عمر يارا، تحب الليمــون وترتمــي فوقى بكل براءة لتمنعني من الانصراف حين تراني متعجلاً فــي شرب الليمون، أو ناظراً في ساعتي. أستنجد بصديقي فيبتسم فــي شماتة رافضاً التدخل. أضربها بظهر يدي مستمتعا بالفرقعة على صدرها الصغير الذي يرفع الثوب بلا ســوتيان، فتعيــد الهجــوم مبتهجة برضوخي أمام ضحكها الجذل وشعرها المنسدل للخلــف، فلماذا لا ترتمي في صدري أكثر، لألم شــعرها المبتــل بــالعرق بشريط أصفر وأحس بقلبها المتقافز، تلك البنت التي تكبــر كــل يوم، مازجة طفولتها بالأنوثة بينما ينتابني الوهن؟

ضغطت الجرس فأحسست بوقع أقدامها المسرعة وضــحكتها المشرقة وهي تتعلق برقبتي وتضم ساقيها حــولي. خرجــت الأم من المطبخ مرحبة بنا وصرخت:

ــ وفاء يا مجنونة.. عيب.. عمك تعبان من السلم.

همست زوجتي بأن وفاء كبرت، ولا ينبغي أن أسـايرها فـي الهزار بهذا الشكل. سألتها ــ مستغرباً من حبها لإفساد كل لحظة جميلة ــ إن كانت تشعر بالغيرة. ردت في برود:

ــ لا أغير.. والأم حين قالت عيب لم تكن تقصد وفاءوحدها!!

أفسدت اليوم الجميل بملاحظتها السخيفة، وأعـادت سـؤالها الجارح عن الليمون:

ــ قل لي سبباً واحداً يجعلك تحب هذا القرف!!

لم يكن وحده الليمون، كان الخوخ نيئـاً وصـغيراً، وقطـوف العنب خضراء ومدلاة، والجميز غير المختن والنبـق والـبلح الصيص الذي يشلبن اللسان في أيام الـصيف. لـم يكـن وحـده الليمون. والبداية ربما كانت بعيدة فعلاً ويصعب تحديـدها، لكـن الكوب الذي أعدته البنت وفاء نبهني لطعم قديم ورائحـة بعيـدة وبدائية، وعطش لا يرتوي إلا به. لم أكتـف بباعـة الليمـون، فاهتديت إلى أماكن زراعته، أمضي العـصاري بـين أشـجاره، تتغلغل الرائحة في جسدي وملابسي، فأقطف الأخضر والأصـفر الناعم، أشـطره بأسناني وأمتـص عصـارته حـادة ولاذعـة. أحببت البذر والقشر بمرارته، واستطعمت الفاسد وهى تجمعه من الثلاجة فصرخت:

ـــ لم تعد هذه شقة!

لم تمرض يارا ولا بكت، وفى سبوعها كانــت تنظــر إلينــا مفتوحة الفم والعينين كأنها تريد أن ترضع، حتـــى أنهــا ألقمتهــا الثدي وكنت أوقد الشموع في انتظار هانم فودة لتكحــل العينــين، وترش الملح، وتنثر الحبوب السبعة في أركان البيت لكنهــا لــم تحضر، فانقبض قلبي واضطربت زوجتي لاحتباس اللبن. هززت يارا فكانت شاحبة وممتلئة، وخطفتها أمي في لهفة و بكت:

ـــ البنت ميتة وشبعانة موت يا بنى!! حرام عليك..؟

سقطتْ من يدي فقمت مفزوعاً. قلت إن يارا كانت تلعب هنــا حولي، وأشرتُ إلى أشجار الليمون. كانت تمرح منتشية وربما لم تنتبه للبئر. صرخَت، فمددتُ يدي، تلامستْ أصابعنا بالفعل وهي تحاول التشبث بكفي، لكنها سقطت ولم يعد بمقدوري نسيان الذعر في عينيها، أو توسل الأصابع الصغيرة ذات الأظافر وهي تتشبث بكفي. راعني وجود بئر بهذا العمق في حقل ليمون صغير فظللت أصرخ: يارا.. يارا.. حتى أفزعتني شمس العصاري نافــذة مــن الشباك المغلق، فيما لم أتعود النوم في الظهيرة. نــاولتني كــوب الماء فرددته بعنف:

ـــ أين الليمون؟

ارتفع نشيجها وهى توقظني:

ـــ ليس وقت الليمون.. قم.. وفاء ماتت.

انتفضتُ واقفاً غير مصدق، فأشارت إلى الخارج:

ـــ اسمع الميكروفون!

كان يحتضن ابنته في ذهول ويهزها كأنه يرجوها أن تستيقظ:

ـــ وفاء.. وفاء.. ردى على بابا يا حبيبتي.

كانت ممددة في استسلام كأنها نائمة، مبلولة الشعر كأنها خارجة من حمام، بينما كانت الحجرة معبقة برائحة الليمون. خامرني شعورٌ أنها ستفتح عينيها وتعاتبني فأدرتُ ظهري وبكيت. كانت في عيادتي أمس مع أمها، لم تتعلق برقبتي ككل مرة وإن احتفظت بنفس المرح. قالت الأم إن الزيارة بخصوص وفاء، دورتها الشهرية منقطعة، بلعت ريقها بصعوبة وسكتت. أشرتُ إلى سرير الفحص، فهجمت رائحة الليمون بشكل مفاجئ، وبدا صدرها كبيراً وبارزاً، فيما ظهر الانتفاخ أسفل البطن واضحاً. سألتها إن كانت تشعر بدوخة أو غثيان أو تميل إلى النوم والكسل والهبوط، فهزّت كتفيها مستغربة وغير فاهمة. بلعت ريقي وأبلغت الأم، فخبطت صدرها وصرخت:

ـــ يا سنتك السوداء يا وفاء.. حامل!

وقتما ترد على بالي يتشبع الجو برائحة الليمون، وأتوق لرؤيتها. أندفع تاركاً خلفي كل شئ. ببراءة تقطع استحمامها

وتفتح الباب كأنها تتوقع حضوري:

ــ أهلاً.. أهلاً.. تفضل يا عمى.

أبدى تراجعاً حين أشعر أنهــا وحــدها، فتــشدني مــستغربة ومبتسمة:

ــ ادخل يا أخي.

وتستأذن لتكمل حمامها، فيما أسمع رشرشة المياه على الجسد، وغلق الصنبور، وحركة الفوطة، ووقع أقــدامها الــصغيرة فــي الطرقة قادمة من الحمام. على كنبة أمامي مشطت شــعرها فيمــا ازداد عبق الليمون، وكان ثوبها المنزلي رقيقــاً ومرتفعــاً أمــام نهديها الصغيرين. قالت إن أباها لن يتأخر، وأمها في السوق. ثــم لمت شعرها بشريط أصفر وابتسمتْ، فبان جبينها مشرقا:

ــ سأعصر ليموناً.

كنت أرى انبثاق الأنوثة من الطفولة، فــوددتُ لــو أضــمها، لكنني تذكرتُ ملاحظة زوجتي فقمتُ واقفاً. قالت مندهشة:

ــ والليمون يا عمي؟

وبينما كنت أصفق الباب خلفي، كان الكوب في يدها وهي تهز رأسها متعجبة.

رغم ضربه المباغت والموجع وصراخها المتألم، لم يتلــق رداً على سؤاله الملح عن الفاعل، وفشلت الأم فــي الوصــول إلــى

الحقيقة عندما اكتشفت أن البنت لا تفهم ما يقصدونه. سألني إن كان استحمامها مكان أمها يعد سبباً، فقلت إنه احتمال ضعيف لكنه وارد، خاصة وأن عذريتها لم تزل سليمة. قال إنه يشعر أن ابنته سُرقت، ولا يدرى كيف يتصرف، وأن الحل ربما يكون في يدي، رفضتُ ما يلمح إليه:

ـ تعلم أنني لا أجرى عمليات إجهاض.

كان صوت الميكروفون واضحاً، وكنت مأخوذاً لا أصدق أن ينتهي الأمر على هذا النحو المفجع والسريع. أشعر بالخجل أمام جسدها المسجى دافئاً ومضمَّخاً بالليمون، عليه آثار الدموع والضرب المبرح. يداهمني يقين بأنني تخليت عنهم بالفعل، وأنهم أجبروني على الكذب، حين اتفقوا على مداواة جرحهم بطريقتهم، فشربت وفاء السم بنفس الرضا والبساطة كما تشرب الليمون، لأكتب في تصريح الدفن أن سبب الوفاة انفجار مفاجئ بالزائدة الدودية.

منطق آخر للجدل

كان أمراً عابراً، لكنهن دفعنني إليه بجلستهن الغريبة، تلك اللاتي يحطن بها صدورهن بسواعدهن المضمومة، كأنهن يحافظن على شيء ثمين، وحركات أيديهن التلقائية للتأكد من قفل أطواق ملابسهن، وهواجسهن الدائمة أن أحداً يتلصص على هذه المنطقة أو يسدد بصره نحوها. وربما دفعني إليه ما وصلني من تصورات عن اعتقادهن بذلك.

كان أمراً عابراً، لكنه عنّ لي أن أطرحه للخروج من اعتلال المزاج الذي أعاني منه، وتمضية لما بقي من محاضرة مملة في التوعية بمخاطر الإنجاب، بيد أنني انسقت ــ لا أعرف لماذا ــ لإقناعهن بما قلته عن أن الثديين ليسا سوى غدتين لإفراز وتخزين اللبن، غير أنهن يستخدمنهما في غير ما خُصِّصا له، وقلت إنهن ربما لا يعلمن أن هذه المنطقة لا تختلف عن أي جزء آخر من الجسم، ولا تبدو في الحقيقة مثيرة للانتباه في فصائل الثدييات والمجتمعات العارية والقبائل البدائية، وأضفت أن الأمر برمته لا يعدو غير خدعة العرض والإخفاء التي كان على الرجال أن ينتبهوا إليها.

كنت منساقاً بشكل غريب، ولم أكن لأرضى سوى بتسليمهن التام، فرحت إزاء صمتهن واتساع أعينهن أسوق الأدلة، مستنداً في إثبات مقولتي إلي لباقتي وقدرتي على الإقناع، وشاحذاً تاريخي الطويل في توصيل ما أريد قوله وقتما أريد وكيفما أريد، مشيراً بصراحة، ودون أن أحدد، إلى ثلاثة في هذه القاعة متوهجات يعتبرن أن أنوثتهن تتمثل في الجلوس بالملابس الداخلية، والتبول ـ حين لا يراهن أحد ـ واقفات، والنوم على بطونهن، دون أن تشير إحداهن إلى صدرها النموذجي. واتخذتُ من اعترافهن ذريعة للوم أربعة ذوات أثداء ضامرة، يضعن قطناً خلف حمالات صدر مبطنة، ويفرحن مؤقتاً أثناء الحمل والرضاعة حين ينتفخا باللبن، ثم يعدن للاكتئاب والحشو بالقطن بعد الفطام. وإمعاناً في توضيح الأمور أشرت ـ ولم يكن يجب ـ إلي أن اثنتين هنا على الأقل قد أزالتا ثدييهما جراحياً، وأنهما طبياً ما زالتا كاملتي الأنوثة إلا في نظر زوجيهما.

اعتبرت صمتهن موافقة، واسترخاء أذرعهن المضمومة وجلستهن المفرودة وعيونهن المفتوحة تواطؤاً على الخروج قليلاً عن موضوع المحاضرة، والخوض في أمور كهذه بشكل تفصيلي، وقد بدوْن ـ عكس أول المحاضرة ـ مطمئنات، لا يساورهن قلق أو شعور بالاستعجال. وانضمتْ إليهن ممرضات

وموظفات وشغالات. أبدأ بـــالكلام العـــادي، فتـــشدني أســـئلتهن الجامحة إلى مناطق أخرى. يشتط الكلام بعيداً، لكنني ما ألبث أن أربط هذا بذاك. وكعادتي في إنهاء المواقف عند الذروة، واختباراً نهائياً للتواطؤ الذي افترضته، نظرت في الساعة وقمـــت بـــشكل مفاجئ، متعللاً بأنني أثقلتُ عليهن بهذا الكلام الفارغ.

كنت أشعر بالانتـــصار وهـــن يـــستوقفنني بعيـــونهن بعـــد المحاضرة، أمام القاعة، ثم في حديقة المستشفى، ويـــسألن أســـئلة خاصة. وإمعاناً في التأكد من الانتصار كنتُ أستفسر عن تفاصيل خاصة، مدعياً أهميتها في دقة التشخيص، ومن ثم الحل، فكـــنَّ ــ لدهشتي ــ يبُحْنَ بـــأكثر مما أتوقع، حتـــى أننـــي بـــدوت بـــالغ الصلف وأنا أسحب نفسي من بينهن ناظراً ــ مرة أخري ــ فـــي الساعة، فيسدلن الطرح، ويعدن تدريجياً إلي التحفظ كلما اقتربـــت من البوابة، وهن يرجونني أن أحدد محاضرة ثانيـــة لاســـتكمال النقاش.

في المحاضرة التالية كن متألقات. يرتدين أجمل مـــا لـــديهن. كانت (نهى) في الوسط أمامي مباشرة، تعاتبني بعينيها الناعـــستين وصدرها المنتصب في شموخ، منذ أوعزت إليها فـــي محاضـــرة سابقة، وظللت أضغط على مواطن الضعف التي أعرفهـــا حتـــى لانتْ. وحين أحسستُ أن صدرها هو مصدر الإعجـــاب، تعللـــتُ

بأن ورائي موعداً هاماً، لكنها ظلت بصدرها المنتصب تطـــاردني لثلاث ليالٍ في حلم واحد.

كانت نظراتهن حالمة، حتــــى أن الـــرءوس انكـــشفت وســـط المحاضرة فلم تسع الأيدي لسترها. انقشع الخجل، ولم يبد تحفـــظ من أي نوع. وكنت أتكلم بآلية ما أزال، يعاودني اعتلال المـــزاج، وفقدان الحماس لأي شيء: تنظيم الأســـرة، التثقيـــف الـــصحي، الجرائد والتليفزيون والمستشفى والمقهى وبيانات الحكومـــة.. إلا سجائري، ألتهمها وأطرد الدخان من فمي بملل كـــأنني أبـــصق. ألمِّح إليهن ــ وأقصد نهى ــ بأن لا يجئنني في الحلم، صـــراحة أو متخفيات في صورة سعاد حسني، لأنني أتعـــذب حقيقـــة مـــن انتحارهن المتكرر في الحلم لكثرة إعراضي عنهن، حتى أنني لم أعرف على وجه الدقة إن كانت عينا نهي العاتبتان حزينتين لمـــا حدث مني في المرة السابقة، أم لما حدث في الحلم، أم لأن امـــرأة ــ على غير العادة ــ ألقت الصباح عليّ في الطريق العـــام ولـــم أرد، فأسرعتْ الخطي كأنها تهرب وهي تنظر بخجل شديد فتهيَّـــأ لي أنها هي.

ارتبكتُ حين وقع نظري فجأة على سعاد حسني، كانت متألقة ومنطلقة، تضع يدها على رأسها والأخرى في خصرها وتنظـــر بدلال من تحت إلى تحت. كان من الصعب ــ سوى من الـــصدر

فقط ــ أن أفرق بينهما حتى فـــي الحلــم. أخرجــتُ ســيجارة، وانتهزتُ فرصة إشعالها لأتأكد من صدرها، فوقعت عيناي علـــى الخبر الصادم أسفل الصورة. كان مفجعاً كما فـــي الحلــم وغيـــر متسق تماماً مع انطلاقة الصورة وتوهجها. وكنت أريد أن أعرف وقع الخبر عليهن، وخاصة نهـــى، لكننـــي آثـــرتُ ألا أعـــرف، وانتهيت دون أن أربط هذا بذاك، وخرجت إلى حديقة المستـــشفى التي بدت ضيقة على غير العادة. عادت الأيدي تـــستر الـــرءوس بالطرح والوجوه ترتدي نفس الأقنعة التي دخلن بها. عند البوابة، أمامهم نهى التي وقفت بارزة الصدر، كن يتوسلن لانتزاع موعـــدٍ لمحاضرة أخرى، لكنني لأسباب أخرى غير القسوة هـــذه المـــرة اعتذرت.

اقتربت غجريات ثلاث برباباتهن من باب المستـــشفى، كـــدن يمنعننا من الخروج وهن يغنين بالربابة والإيقـــاع لحـــن "البنـــت بيضا"، فما الذي دفعني أنا الذي لم يعد يجـــذب انتبـــاهي شـــيء للتلكؤ، والنظر إليهن وهن يصفقن ويوسعن الدائرة دون أن تنسدل الطرح، أو تحل لتتحزم بها الخصور كما افترضت لتـــوي. ودون أن أنتبه لمكر الغجريات اللاتي أسرعن الإيقـــاع قلـــيلاً، بـــدا أن الأربع اللاتي يضعن قطناً لا يملكن السيطرة على أجسادهن حيال اللحن، ولم تعد اللتان أزالتا ثدييهما جراحياً مكتئبتـــين، وبـــدتا ــ

ظاهرياً وطبيا ـــ كاملتي الأنوثة، تهتزان مع اللحن.

أحطنني فلم أستطع الخروج. وفشل زينهم المعاون الذي كـــان يبتسم في كسر الدائرة، فطوح العصا في الهواء من خارج الدائرة فتلقفتاها وأسندتاها بين صدريهما وصارتا تتمـــايلان بخـــصريهما وجذعيهما، مرة على ساق والثانية على الأخرى، في تنـــاغم دون أن تسقط العصا، وهن يبتسمن حتـــى شـــعرت أنهـــن يجـــادلنني بطريقة أخرى بدائية، دون أن أستطيع الخروج.

حتى هذه اللحظة، لم أكن قد قـــررت اللجـــوء إلـــي العـــصا لتفريقهن، إلا عندما تحولت الغجريات باللحن إلى "مالي بيه الـــواد الخاين" فكنت أهش بطرف العصا على الأرض أمـــام أرجلهـــن، متقدماً إلى الأمام والخلف كي أفتح ثغرة، ولكم بـــدا الأمـــر بـــالغ الصعوبة، متطلباً المزيد من التحرر والرشاقة للمحافظة على ذات المسافة فلا يضيقنها مع التلويح بالعـــصا دون إصـــابتهن. كنـــت أتقافز برشاقة واضعاً يدي في خصري أو فـــوق رأســـي وهـــن يضيقن الدائرة كأنهن سيهجمن، وحين يشعرن بفزعـــي، يوســـعن الدائرة مرة أخرى ويصفقن بإيقاعهن المتعـــالي. كأنمـــا أرقـــص رقصة التحطيب لا أبحث عن ثغرة للخروج، كنت أتعجـــب مـــن نضارة وشقاوة أثدائهن التي بـــرزت خلـــف البلـــوزات الـــضيقة والهدوم المنزلية، حتى أنني لم أكن غاضباً وصدر نهـــى يهتـــز

كأرنبين طليقين، وانتصارها على عطيات التي تركتهما متهــدلين ومرهقين. لكنني كنت غاضباً وأنا ما زلت أتقافز لا إرادياً فــي الهواء، لأنني لم أعرف منذ متى انتهى اللحن، ولا متى ســقطت الجريدة من يدي علي نفس الصورة المنطلقة وهن ينظرن جميعا، فأسرع بالخروج من دوائرهن المغلقة الصامتة، متفادياً النظر في عيونهن المفتوحة، وسواعدهن المحيطة بصدورهن كأنها تحــيط بأشياء ثمينة، وحركاتهن التلقائية التي تتأكد مــن قفــل أطــواق ملابسهن.

داليا.. عمليات

عشرة أشهر وأنا أسير لنداء داخلي، يوحي إلي فأتنقل بحالاتي بين المستشفيات الخاصة بالمدينة. نداء مبهم وغير منطقي، لا أجرؤ على التصريح به، بينما أبرر اختياري في كل مرة باتساع المكان ونظافته، أو انفصال العمليات عن غرف الإقامة والزوار، أو الخدمة والتمريض ورخص الأسعار. يبدأ النداء بعيداً وملتبساً كفجر كاذب، ثم لا يلبث أن يشرق كالحقيقة ويتوهج، فأحدد المستشفى وأذهب مفعماً بالأمل، أحدق في بنات العمليات فلا أجدك، فأتم مهمتي وأخرج مستسلماً لحالة من اليأس تمتد أياماً، قبل أن يومض النداء الغامض داخلي ثم يبزغ، فأوعز لأهل الحالة التالية بالذهاب إلى مستشفى آخر.

ـ اسبقني ع الصفا..

هاتفني زميل مستنجداً كيف يتصرف وامرأته تنزف بشدة من مجيء المشيمة قبل الجنين. بآلية قلت: الصفا. ولبست هدومي وتوجهت إلى هناك، وعلى مدى عشر دقائق ـ قيمة الطريق ـ لم يشغلني النزيف بقدر ما كان الحدس يومض بداخلي ثم يشرق

حتى ملأني كنور الضحى، حدس لا يداخله شك بـأنني سـأراك الآن حتماً حالما أدخل من باب المستشفى ــ مثل آخـر مـرة ــ واقفة تنبهين على الشغالات بأن يُدخِلوا مريضتي حجرة (٧) دون أن تنتبهي إلي وصولي إلا وأنا أجذب القميص من أمامك وأتجـه إلى المكتب قائلا: العمليات على طول.. وبلغي التخدير.. الجنـين تعبان. هل انبنى حدسي علي آخر عملية أجريتها هنا منذ عـشرة شهور وكانت زوجة لزميل أيضا؟ ربما، لكنني لم أجـدك، فخبـا الإشراق ولم يحدث من ثم ما ارتسم بداخلي مـن فتحـك لبـاب المكتب وأنا أغير ملابسي، ودهـشتك لـسرعتي فـي اللـبس، وإحجامك عن استبدال القميص الخطأ. أو أجدك حين أخرج مـن غرفة المكتب واقفة في غرفة العمليات معقمة ترتـدين الجـاون المفتوح من الخلف والقفاز أمام منضدة الآلات. لم أجـدك، ولـم تكن مجرد لحظة تصيبني فيها خيبة أمل أشعر بها، إنمـا كانـت ذروة اليأس، ولا أدرى كيف امتدت يدي لتتناول القميص من يـد نهى الممدودة، فسقط قميصك الذي حرصت على ارتدائه لعـشرة شهور من تحت إبطي.

"إيه يا عم الحلاوة دى؟". شهقت نهى وصابرين وإكرام وأنـا أُدخل ذراعي في كمي الجاون، فانطوت ابتسامتك للمفاجأة علـى عتاب من سلوكهن الفج، والذي بدا كأنه خارج نطاق الـسيطرة،

وبدا لي لأول مرة أن الآلية التي يسير بها العمل داخل غرفة العمليات لم تكن وليدة انسجام بينكن، بقدر ما كانت تنفيذاً لأوامرك الخفية وهن يستشرنك همساً، فتحدقين بعينيك الواسعتين، تفكرين لوهلة ثم تهزين رأسك رفضاً أو موافقة، فتسير الأمور لمن لا يعرف بانسجام، بداية من تجهيز أدوية التخدير والمنظار والأنابيب الحنجرية بمقاساتها المختلفة حتى التأكد من الأكسيجين في الاسطوانة، ولن يدرك الغريب ــ مهما بلغ انتباهه ــ أن بصتك العابرة نحو الحوض كانت تعني وضع الفُوط والفرش بعد العملية في الماء وإضافة الكلور، أو أن إيماءتك نحو الغسالة تعني نقل الفرش إليها وتشغيلها. حتى نشر الفرش ولمه وتطبيقه ووضعه في جهاز التعقيم بإيماءة تختلف عن تلك الأخيرة المتفحصة لكل أرجاء الغرفة قبل أن تصير جاهزة لاستقبال عملية جديدة. لم تفوت البنات فرصة إلا ويحدقن فيّ ويتهامسن، فاستشعرت أنهن خارج السيطرة.

بإخراجي للجنين، وإغلاقي للطبقة الأولى من الرحم، انتهت عشر دقائق من التوتر، وعدت ــ خلال باقي العملية ــ أرقبك وأنت منشغلة بمناولتي الآلات التي سوف أطلبها، تنتقلين بين منضدة الآلات وطبق الماء الساخن، تنشيف المجال، تقصين فتلة وتلضمين إبرة جديدة، وتعتذرين عن كثرة اصطدامك بي، فيما بدا

أنك تعملين وحدك بينما نهى وصابرين وإكرام ــ عكس كل مرة ــ منصرفات إلى العناية بالجنين، أو الهمس والنظر مــن تحــت لتحت. كنتِ حادة قليلاً، تترقرق عيناك وأنت تنظرين إليهن، فــلا يستجبن بنفس السرعة. فككت القناع عن فمي منتظراً أن أكتــب لك خطوات علاج المريضة، فأتأمل ــ ككل مرة ــ المناطق التي ترشح بالعرق أعلى الثديين عبر قمــيص العمليــات بمجــرد أن تخلعي الطاقية الورق عن رأسك وتتدلى ذؤابتاها علــى رقبتــك وأنت تمسكين ملف المريضة وتضعينه على صــدرك وتــشيرين إليّ وإصبعك على الكلمة التي تريدينها إن كنت أقــصد جلوكــوز كل ست ساعات أم ماذا، أقول: أين؟ فتضغطين بإصــبعك أكثــر على الملف والذي يضغط أكثر على جانب ثديك، فــأقول دون أن أرفع عيني عن إصبعك والملف: جلوكوز ٥% كل ست ساعات.

ماذا بوسع ممرضة احتد عليها طبيب، سوى الغيــاب بــضعة أيام أو العمل ــ على أكثر تقدير ــ في أحد المستشفيات الأخرى؟ وماذا كان عليّ سوى أن أنتظر مجيئك ثم أجوب بالترتيــب كــل هذه المستشفيات ممتنعاً عن القهوة التي تعدها الــشغالات بــذات المقادير وذات الوش بأمر من نهى وصــابرين وإكــرام، لأنهــن يتعمدن عدم الإدلاء بأي حديث عنك أمامي مهما بــدا عــابراً أو تلقائياً، كأنك لم تكوني رئيسة هذا المكان يوماً. صمت مريــب لا

يعني سوى أنني جننت، وأنك لم تكوني سوى برأسي، أو أنهن تواطأن معك على تعذيبي، نفس التواطؤ الذي أثر فيّ على مدى ثلاث سنوات وجعلني أخضع لتأثيرك الجسدي والروحي، الناتج عن كونك تبدين طوال الوقت على هذه الدرجة المذهلة من التوافق والانسجام، فلا أجري أي عملية إلا هنا. اعتدت حتى في الحالات التي لا تتطلب السرعة أن أجيء مبكراً، ربما قبل الحالة، أدخل المكتب فتأمرين الشغالة بإعداد القهوة في كوب، منبهة في كل مرة على المقادير والحرص على الوش، لأستمتع كعادتي من بعيد بالنظر إلى منبت شعرك الناعم الملموم عند رقبتك النحيفة وأنت تقدمين القهوة وتنحنين قليلاً لتضعينها أمامي فيبين منبت الثديين، وقبل أن يظهرا كاملين تعتدلين بسرعة وتقولين:

ـ نحضّر دلوقت واللا اما تيجي الحالة؟

أقول: شوية. على أمل أن تجلسي قليلاً. لكنك تنصرفين. يلاحقك السؤال: خيوط إيه اللي عندك؟ فتلتفتين عائدة تعدين ببراءة على أصابعك الرفيعة أنواع الخيوط وأرقامها، بينما أحملق في صدرك حتى تنتهي لأتخير: كروميك٢ بدون إبرة، وفيكريل١ علي إبرة قاطعة. أنادي ولا أشبع فتلتفتين: يا داليا.. اللبس. يا داليا.. التعقيم. يا داليا.. المريضة تخش الحمام أولا. وحين أدخل

أجدك قد أعددت كل شيء. فقط أمد ذراعي في كمي الجاون، وتشيرين إلى الشغالة فتربطها من الخلف، ألتفت فتكوني قد جهزت القفازات رقم ٨، وتشيرين إلى أصابعي فأفردها كي تلبسينها لي بنفسك.

شعرت للمرة الأولى بضيقك من بطء استجابة البنات لإيماءاتك، تلك التي تحولت إلى نظرات حادة وصامتة ومترقرقة كأنها ستدمع كي لا أشعر أثناء العملية بعدم الانسجام الذي وصلني بالفعل، ودفعك بعد أن انتهيت من العملية إلي الانصراف بالآلات لغسلها بنفسك في صمت، تاركة لنهى ومن خلفها صابرين مهمة إحضار ملف المريضة لأكتب العلاج، بينما أعزو ابتساماتهن وشهقاتهن إلى هذا الوقت من العام الذي يتخففن فيه من ملابس الشتاء فيبدون فيه جميلات أكثر من المعتاد، ويتقن إلى مخاطبة الرجال، وهن يتحركن بخفة في ملابسهن الخضراء.

لم توقفني شفة نهى السفلى الغليظة مع ذلك الجزء المكشوف من الرقبة والصدر الكبير المرتفع لأنني أعرف أن الصورة ستختل حالما تدخل عناصر أخرى كالبطن والجذع والردفين، ولا وجه صابرين الأبيض كالشمع بعينيها الخضراوين وسنتيها الأماميتين البارزتين على جسد نحيف بلا صدر أو أرداف. لم أكتب كلمة واحدة، معتبراً أن حقاً من حقوقي قد انتقص، وبحثت

عنك، لأن الرقبة ليست ذلك الجــزء الأسـطواني الـذي يحمـل الرأس، إنما الرقبة مع الكتفين مع عظمتي الترقـوة، مـع حجـم الرأس ونوع الشعر وتسريحته في هذه اللحظة وعلاقة كل ذلـك بالوجه، تلك هي الرقبة التي تختلف قيمتها صعوداً وهبوطـاً مـع هذه المتغيرات، لتصل إلى ذروتها معك فـي قمـيص العمليـات الأخضر، ذي الطوق المفتوح على شكل ٧، والذي يسمح لهـا أن تبدو طويلة بالفعل وملساء ونظيفة بـلا اخـتلاف فـي اللـون، مصحوبة بذلك الإحساس الإضافي بالطول النـاتج عـن رفعـك لشعرك الناعم من منبته أعلى الرقبة وضمه في كحكة، مع وجهك المستطيل ونظراتك الحادة والمنتبهة دائماً، وانسدال كتفيك قلـيلاً تحت القميص نصف الكم والذي يضفي على ذراعيك المكـشوفين طولاً أيضاً ربما أكثر من اللازم. لا أعرف من أين أتى كل هـذا الغضب لأقذف بالملف وأزعق: "فين داليا؟" فتنتصبين أمامي على غير العادة تلمين طوق سترتك بيد وتمسكين الملف بيد: "أفنـدم". وتتسع عليك البيجامة، وتبدين في لحظـة أرفـع مـن ذي قبـل وأصغر، بينما لاح لي أنني أعنِّفُ طفلةً بأنه لا يـصح أن تتـرك ملف المريضة لأحد غيرها، وأنت تومئين بالموافقة كتائهة وتلمين الطوق بحرص أغاظني. جذبتك من ثيابك لتنتبهي فانفكـت ثنيـة الطوق من يدك، وانبثقت دموعك دون أن ترتفع يدك مرة أخرى

لتخبيء صدرك الذي أطل أكثر من المعتاد من فتحة القميص، أو تخبيء اسمي الذي بان مكتوباً بالأحمر على جيبك الأيسر، وهو ما زاد انفعالي، لأنك أول من يعرف أنني لا أحب أن يرتدي قميصي أحد. حتى انتبهت – بعد أن أمرتك بالانصراف وأغلقت المكتب وغيرت هدومي – إلى أنني كنت أيضاً ألبس قميصك المكتوب على صدره: "داليا.. عمليات"، عندها – فقط – أدركت لماذا فتحت علي الباب وأنا ألبس قبل العملية، ولماذا كان البنات يبتسمن ويشهقن بسوقية.

بإخراجي للجنين، وإغلاقي للطبقة الأولى من الرحم، توقف النزيف وانتهت عشر دقائق من التوتر، واكتشفت – خلال باقي العملية – أنني كنت أنظر إلى نهى على أنها أنت، وناديتها اليوم أكثر من مرة – خطأ – باسمك، مستشعراً مذاق قهوتك حالما ننتهي. لكنني انتبهت مستغرباً من سيطرة اسمك وتردده على غير العادة وحضورك الجارف، ولا أكذب لو قلت إن رائحتك تملأ الغرفة، ورائحة القهوة من اتجاه المكتب تملأ خياشيمي، وإنني أشم عرقك. استغربت هذه المرة لبقاء لحظة الإشراق بداخلي حتى خلعت الجاون، وقلت لزوجة زميلي وهي بين الغفوة واليقظة: حمداً لله علي السلامة، فخمشت قميصي. كانت تخمش القميص بيدها من ظهري كأي مريضة تفيق، غير أنها بدت

خمشات ملحة، وبينما أتأهب للخروج ازداد الخمش. التفتُّ، كانت الأصابع التي تتشبث بأطراف القميص تجذبني من طوقي بإلحاح، وتتشبث بالقماش والجلد، وأنا أحاول أن أفهم مـــا تريـــد، وحـــين نشبت الأظافر الصغيرة بشكل مؤلم لاحظه طبيب التخدير وسعى لتخليصها من قميصي، لم أكن قد انتبهت بعد إلـــى تلـــك الرقبـــة والصدر وملامح الوجه المستطيل، وذات حبات العرق النظيـــف في منبت الشعر المنسدل، وتلك البصة العميقة والحزينة في عيون محتقنة بالدموع والتخدير.

تركتْ القبضة الصغيرة جداً لزوجة زميلي ــ والتـــي تـــشبه قبضة طفل ــ أثراً بقلبي الذي بدا كأنما ينتزعه أحدٌ من مكانـــه، ونهى تسلمني قميصك الذي سقط من تحت إبطي. ذلك الأثر الذي دفعني إلي العزوف عن قهوة قالت نهى إنني الذي طلبتهـــا لأول مرة، فأتت بها مبتسمة وهي تداري صدرها الكبير من الظهـــور فلا تفلح.

حمل الغزلان

هو الموعد، لا قبل ولا بعد. تنفرط القطرة الأولـــي فينطفـــئ كمصباح حلمي الخامس والثمانين. أغمض عيني وأدفـــن وجهـــي في الوسادة. هو الموعد، لا قبل ولا بعد. سلسلة مفاتيحه تخـــرج من جيبه. يبحث عن مفتاح الشقة. كأنه عرف حين مـــال علـــى نتيجة الحائط ونزع ورقة اليوم مبكراً. لم يعد بإمكـــاني مـــداراة لمعان عيني، كأنما سأبدأ تواً في البكاء أو انتهيت للتو منه. كأنـــه عرف. وضعت العشاء ولم أستطع أن أتكلم. حركتي بطيئة وفمي يتحرك شبه خال. يصعد كوب الماء إلي فمي وينـــزل ولا أبلـــع. أقوم لأكثر من مرة وهو صامت، أتذكر الملح ثـــم الملعقـــة ثـــم الشوربة. ألم الأكل أخيراً وأدخل المطبخ.

قطرة قانية، ليست لها رائحة الزفارة المعتادة، متأنية ومؤلمة. استبعدت أن تكون طمثاً، كي لا أشق المقابر، وأتـــيح للفـــزع أن يتملكني. هكذا يكون الاتفاق: ينتظرني هنـــاك، خـــارج المقـــابر

بمسافة، أخترقها فجراً، بعيداً عن أنوار الأعمـــدة، فترتمـــي فـــي ضوء النجوم ظلال الشواهد وأشجار النبق والنخيل علـــي أرض سوداء. يزداد الفزع كلما توغلت. أسعى وحدي وبمحض إرادتـــي لمزيد من الخوف. آخذ الطريق اليمنى فلا أمر على شيء مررت عليه من قبل. لا ينطق لساني بشيء. أعلم أنني غيـــر متوجـــسة، وأنها مجرد ظلال وشواهد وخرفشة أفرع شجر، وأوراق جافـــة أدهسها فتتبعث هذه الأصوات الخرافية، لكنني لم أستطع أن أهمل خطوات كأنها تتبعني ويداً توشك أن تلمسني. لم أصرخ، فالمقابر التي ظننتها مفتوحة أجدها حين أقترب مغلقة. اعتبرتها تهيـــؤات، مطمئنة لوجوده بالخارج، وأن ما يحدث على أي نحو قد يكـــون تحت سيطرته، فالأمر مرتب ربما لإثارة الفزع على نحـــو مـــا، والخطوات التي تتبعني ــ حين حدقت ــ لم أجدها. مرق من بين ساقي فجأة قطان: أحدهما أسود والآخر أبـــيض، صـــعدا ســـطح مقبرة. تسارعت دقات قلبي، وارتطمت برقبتي نفخـــة ســـاخنة، التفت، تقافز قلبي، نفخة أخرى حارة، التفت. من أين يـــأتي كـــل هذا الهواء الساخن؟ بدأت الأمور تتجاوز ما أتوقعه. استراحت يد علي ظهري. "إيه اللي جابك هنا؟". هـــزت صـــرختي الطويلـــة الفزعة خواء المقابر وأنا أهوي، فيما كانت اليد الكبيـــرة تقـــبض هدومي بجزء من لحمي، تمنعني من الـــسقوط وتـــدفعني نحـــو

المقبرة التي بدت كأنها مفتوحة مرة أخرى. رد الباب بقسوة فيما لم يتصاعد صراخي الحاد متواصلاً وهستيرياً إلا بعد أن سمعت صوت فأس تهيل التراب بحق. كيف فتح الباب فجأة، وكيف خرجت يركض أمامي أرنبان أبيضان. كان الصراخ قد أفزعه وجعله يقابلني عند مدخل المقابر، ليربت كتفي. مجهدة كأنما أفيق من مخدر عام، أو إغماءة طويلة، أسأله إن كانت تكفي هذه الجرعة من الفزع والصراخ، وأسبوع من مرض قاطعت فيه كل شيء عدا البكاء المكتوم، فيلثم ظهر يدي.

كأنما تفتش نظراتهم عن شيء ما في بطني وصدري، تقتحم التفاصيل، تراقب حتى مشيتي واهتزازات أعضائي، كأنما يعرونني، أشعر بالخجل وهم يتظاهرون بالشفقة. ينقطع كلامهم فجأة حين أدخل مكتبي. يبدو الارتباك، يعقبون في إجمال كأنهم يتحدثون عن أخرى "هي في نعمة.. يكفيها الهدوء". لا تجرحني الكلمات قدر ما يجرحني انقطاعها فجأة. يشيرون بأصابعهم لزميلي وأنا خلفه فلا يتوقف إلا متأخراً:

ـ الحلو ما يكملش.. فين العيب في الجسم ده.. حد يفهـ..همني.

لم أعد أعرف. تقاسيم جسدي نموذجية، يقول في ساعات الصفاء ذلك، وحين يحتمي طوال الليل بظهري، ويحيطني

بذراعيه ويريح كفتيه على صدري، وحين لا يأتيه النوم إلا ووجهه مدفون في صدري. لم أعد أعرف، وهانم فودة الداية العجوز ذات التقاطيع الحادة تمسك بفجور وغنج أعضائي وهي تلف الغزل حول وسطي وتستخرج البرد من رحمي بمجمرتها الفخار والعجين وتحتثي كأنها تشجعني وتلعب حاجبيها وتضحك:

ـ ناقصك إيه.. القطي بقى.. آه يانا لو كنت راجل آه.

لم أعد أعرف، سوى أن الأمور لن تسير طويلاً على هذا النحو الهادئ، إذ يرجع الأمر إليهم ـ أبعد الناس إلى أقرب الأقارب ـ بنظراتهم المباغتة تلك وأسئلتهم الصعبة والمتهمة:

ـ العيب عند مين؟

للأرانب البيضاء عشق خاص، إذ تركض حولي وتتقافز في أحلامي بعيونها الحمراء اللامعة ووبرها الأبيض الناصع. أنتظرها فتجيء، فينتابني صحو ونشاط وألق طوال أيامي التالية. لم تأت الأرانب الليلة وأتت نقطة أخري من دم قان وهو نائم في وضعه المعتاد، أعلم ـ من توتر يديه على صدري ودفء جسده الملاصق لظهري وأنفاسه ـ أنه ربما لا يكون نائماً. كان اليوم في عمله وتأخر قليلاً، ربما شرب القهوة عند زميل، أو مرّ على نجلاء، لم يقل، كأنه حزين أو متعب. أغفو وأصحو وهو كما هو، بنفس اليدين المتوترتين حول صدري، في منطقته المفضلة بين

الصحو والنوم، لا يتكلم. نقطة أخري. أتحسس بطني. هل أقــول له إن أمل ابنة خالي لم تكن تعلم أنها حامل حتى شعرت بمغــص شديد. جاء الطبيب وقال: ولادة في السابع، والتقط بسرعة الولــد الذي كان يتحرك في الرحم بينما الدم ينزل كل شهر، ثم ضــحك وهو يغسل يديه وقال: حمل غزلاني. أغفــو وأصــحو ونجــلاء تتشاجر معي، ويعلو صراخها وهي تأمره بعنف دون أن تنظــر نحوي "سيبك منها.. العمر بيعدي.. شوف واحدة غيرها.. ربنــا يعوض عليك.. إيه رأيك ف.." مفزوعة أصحو فأجد نفس يديــه الحانيتين تحيطان صدري، يهدئني من منطقته المفضلة "إيــه يــا حبيبتي.. فيه حاجة؟" فيما هجرتني الأرانب البيــضاء، تكــررت مشاجرات نجلاء، وسقطت في أحلامي أشجار لم تعد تثمر.

كأنما الأمر برمته حلم طويل، مختلط ومتداخل، وكأنــه كــان يرتب لكل هذه الطقوس. يخامرني شعور بأنه الذي أوصى واتفق مع حفار القبور ولم يقل حتى يكون الفزع حقيقياً. كان يــسمعني بشغف كأنه يعرف لأول مرة، مستبعداً الصدفة التي تجمــع فــي نفس الليلة حارس قبور بامرأة تبحث عن الفزع وقبر مفتوح. هي الأمور تتكشف دون أن يفصح وهو يحيطني بين النوم واليقظــة، فأعرف أنه هو الذي أحضر الثعبان وتركه في المطــبخ، وحــين فتحت الفرن وجدته مكوما يبخ سمه في الفراخ المحمرة. صرخت

صراخاً هستيرياً، إذ كنت وحدي في البيت. التمَّ الجيران وموتــوا الثعبان، وجاء من عمله مفزوعاً. رمي الطعام وحمــد الله أننـــي رأيته وإلا كنا متنا. فزعه الحقيقي، وتوجسه مــن كــل شـــيء، ومساعدته لي في وضع الشيح في أماكن مختلفة فلا تنـــتقم أنثـــى الثعبان ممن قتل وليفها، جعل الرعب يتملكني لأيـــام، وصـــرفني عن التفكير في ضلوعه في الأمر مع هانم فودة التي اشترطت أن يكون الفزع حقيقياً. لم أعد أعرف إن كان هذا من ترتيبـــه أم أن الأمور لا تعدو أن تكون صدفاً والربط بينها تعسف كبير.

دم قانٍ، قليل، متقطع ومؤلم، لكنـــه فـــي موعـــده الـــشهري يزعجني ويهدم افتراضي. هل أتصل بالطبيب؟ سيـــسألني عـــن تاريخ الدورة السابقة ثم يطرق كعادته "دورة.. في الغالب دورة". أصمت، يواسي، أعرف أنه يتخلى قليلا عن يقينه العلمي ليخفـــف عني. لم يعد لديه ما يقوله. يخفت الصوت. يخبو الأمـــل. أضـــع السماعة في صمت. أخشى الذهاب لطبيب آخر فأخضع لفحـــوص مخزية وعلاج شرس ومناقشة لتوقيتات فجة للجماع وتعليمـــات بالنوم في وضع محدد ولمدد معينة.

دم دافئ وقان، أغنيات الصبايا تهاجمني، وهن يغنين بخـــوف وغنج عن غياب الدورة في عودتهن المتعبـــة مـــن العمـــل فـــي الغيطان، وينتظرنها فلا تجئ:

ــ "يا أول شهري ولا جاتنيش ضهري.. يا خوفي من أهلــي يتبروا مني".

نفس الصبايا المتعبات من جمع القطن اللاتي غنين لي في ليلة الحنة: "علّي باب الأوضة يا واد يا بنّا.. علّي باب الأوضة لأحل شعري واعملوهلك موضة يا واد يا بنّا"

تغرق دموعي ذراع البنا الذي أعلى ــ قدر المستطاع ــ باب الأوضة وباب القاعة وباب المندرة، لكنها لم تمتلئ بأطفــال مــن صلبه، يركضون ويمرحون فأخرج لهم صدري ككلبة لأرضــعهم وأرعاهم. دم قان وغزير وأنا أخبو. يفقد ثدييَّ توترهما وثقلهمــا، يعودان إلي وضعهما السابق كبالونتين انفقأتا. يفك ذراعيــه مــن حولي كأنما إلى الأبد. أدخل الحمّام، يأس مطبــق وحــر شــديد. أتحرر من ملابسي.. من الغزل الملفوف حول وســطي. أتحــرر من أحلامي وأستسلم للخواء.

القسم الثاني

بوابة الليل

كيف لم أشعر تلك الليلة، وأنا راقد إلى جوارها، أن ثمة أشياء غريبة تحدث، وأنا أراها تنسل من الفراش لأكثر من مــرة، ثــم تضبط الحِرام حولي جيداً على فرن القاعة الدافئة، بينما أتــأرجح بين النعاس واليقظة، فلا أتذكر بالتحديد متى غادرت الفراش إلــى بيت الراحة، ومتى عادت إليه، وهي تستند إلى الحــائط وتتــألم. أحدق في سقف القاعة القريب، بعروقه الخشب وبوصه المــشرب بهباب الفرن، أسدد بصري بتوجس نحو ظــلال ســوداء، تكبــر وتصغر وتتحرك في ضوء لمبة نمــرة خمــسة موشــكة علــى الانطفاء، أعلم أنها هدوم معلقة على الحائط. كتلة الهدوم القديمــة التي كورتها وسدت بها ناروزة السقف درءاً للبــرد والعفاريــت، أراهم يسحبونها بالفعل محاولين النفاذ. يخذلني لساني، فــلا يتلــو آية الكرسي أو المعوذتين، ولا يطاوعني صوتي فيغــادر حلقــي للنداء عليها، حتى أسمعها تغلق باب بيت الراحة وتتــساند علــى الحائط و تتحسس مزلاج باب القاعة، فيهتز ضوء اللمبــة نمــرة

خمسة أو ينطفئ حين تفتح:

ـ يا رب.

كانت قد اعتادت أن تطوقني بذراعيها وتحكي، وهي تحكم الحرام حولي، فيبث جسمها الحاني ذلك الدفء الذي نتلافى به سيرة الحرامية والعفاريت، فيقصر ليل الشتاء الطويل. بين النوم واليقظة، قبل أن أفقد قدرتي على المتابعة، تؤكد عليّ إن كنت في حاجة للذهاب إلى بيت الراحة قبل أن أنام. تخبرني مرة أخرى، لأنها تعلم أنني لن يكون باستطاعتي مجرد التفكير في القيام من تحت هذا الحِرام إلا في الصباح، فالعفاريت تسكن الدار الكبيرة بالليل، وترمح خارج باب القاعة، لا يصرفها إلا أذان إبراهيم عبد المطلب من فوق جامع سيدي مبارك.

كيف طال الليل هذه المرة، ولم يستطع وابور الجاز بوشه العالي أن يبعث الطمأنينة والدفء؟. هدأ وشه ولم يستجب لإعطائه المستمر والمستميت نفساً من الكبّاس سوى بالمزيد من الخفوت، ثم انطفأ. رجته بالقرب من أذنها. نفد خزّانه من الجاز الذي ملأته قبل العشاء، فهاجمتنا خرفشة بالخارج، ودهس لصوص وقطط، وعفاريت لقتلى وغرقى ومحروقين، يعبثون بالكراكيب والمخلفات على السطح المهجور، ولم يعد بالإمكان مجرد التفكير في القيام من تحت الحِرام، لإحضار القمع وصفيحة

الجاز وتعمير الوابور. يتبدد الدفء وتسرى البرودة عبر الحِرام إلى جسدينا، فنتوسل لنور اللمبة ألا ينطفئ، قبل أن يعتلى إبراهيم عبد المطلب ظهر جامع سيدي مبارك.

ثمة أشياء غريبة تحدث، لا أدرى كنهها بالتحديد، وباقي السكان غير موجودين. يشعرنا وجودهم ولو كانوا نائمين بالأمان، حديثهم خلف أبواب حجراتهم، أنفاسهم، حتى كحة الخارج منهم، ولو كانت مفتعلة، يشجع بها نفسه أولاً، وينبه الجن واللصوص كأنه يستأذن، فيخلون طريقه لبيت الراحة. تطوقني بذراعيها وهي ترتعد كأن ألماً متقطعاً يعتريها. أسألها عما يخيف اللصوص، فتقول: الأطفال الصغيرة، أولئك الذين يستيقظون في أي وقت من الليل ويبكون. يتجنب اللصوص تسلق دار بها رضيع. من أي اتجاه تجيء الخرفشة؟ تهمس لي أن أكلمها بصوتٍ عالٍ، يسمعه من بالخارج. تجعلني أصرخ وأزعق لها بغضب. تتجادل معي وتطوقني أكثر بذراعيها فأتضاءل في حضنها، وأتساءل متى يخرج من بطنها المنتفخ أخي، ويبكى بكاءً غشيماً وبريئاً غير خائف، يحمينا من دهس وخرفشات، نعلم أنها ربما كانت لكلب أو قطة أو أرنب، وما حيوانات الليل غير صور يتخفى فيها الجن والأرواح والملائكة.

كنت أسمعها تغلق باب الراحة وتقول: يا رب. كأنها تنادى

أحداً. لماذا طال الليل هذه المرة؟ ولمـــاذا تـــأخر إبـــراهيم عبـــد المطلب في الصعود إلى ظهر الجامع؟ فلم يتناه إلينـــا لغـــط أولاد الحبشي ونسائهم وهن يـــستيقظن ويحلـــبن، ولا جلبـــة خـــروج مواشيهم إلى الغيطان، ولم يحدث ككل فجـــر، فتعـــزق زريبـــة الصيادين ويرتج الفرن الذي ننام عليه لخبطة فأسهم العفية، فنعلم أن سباخاً يخرج، أو تجرد نفس الفأس بصوت أنعـــم، فـــنعلم أن ردماً نظيفاً يُفرش في الزريبة. ليلة طويلة، وناس يغطـــون فـــي النوم، وشتاء للبراسيم والأقماح، لا ري ولا حصاد.

ثمة أشياء غريبة تحدث هذه الليلة، وكلما سألتها تقول: "ادعـــى لى". أقول لها: ماذا أقول في الدعاء. فتقول: "بس قول يا رب خد بالك من أمي" وقول كمان: "يا رب النهار يطلع على خير" لكننـــي قلت: "يا رب.. خللي إبراهيم عبد المطلب يدن بقى"، فأذن إبراهيم عبد المطلب، وفُتحت دار الحبشي، وتنططت البهائم من انحبـــاس اللبن في الضروع، وحدثت جلبة في الخارج. فتحت بوابة الليـــل الكبير مصاريعها فقالت: "دقيقة واحدة.. متخفش.. أوصـــل لحـــد خالتك هانم" فقلت: لا. ألبستني الشبشب وأخذتنى للخارج ولفتنـــي بالشال وأنا أرتعد. كانت تضع يدها في وسطها وتتألم وهي تمـــر من شارع لآخر باتجاه هانم فودة وتقول كلما رأتني أرتعد:

ـــ مش كنت تقعد ع الفرن في الدفا أحسن؟

تقف فأقف. لا أدرى سبباً للوقوف كأنها متعبة تستريح، والمارة القليلون هياكل ملفوفة في خرق ثقيلة بلا ملامح. حين مرقت من أمامنا بساقيها الطويلتين وجلبابها الأسمر بكرانيش وتلفيعة الرجال حول رقبتها، كانت متعجلة، وبدا أنها لم تنتبه لنداء أمي الخافت:

ــ خالة هانم.. خالة ها..

ــ عايزة إيه يا بت؟

ــ كنت عايزاكى تشوفينى.

ــ الضهر وانا راجعة.

ــ والنبي يامه هانم تشوفيني.. دانا هموت.

ــ فيكى وجع؟

ــ ما نمتش امبارح.

سبّتْ هانم فودة ــ ذات الوجه المستطيل ــ بصوتها الغليظ الذين خلفوا أمي وهى تدخن السيجارة بغضب، إذ تتشاءم في مشاوير الصباح من العودة أو مجرد النظر للخلف، وشدّت نفساً وهي تفكر، فاشتعلت مقدمة السيجارة، فلعنت أم السجائر أيضاً، وسارعت إلى إخمادها في الحائط وجذبت أمي. لم أدر إن كنت قد تركت يد أمي لأن النهار قد شقشق بالفعل فانكشفت الشوارع و الحيطان، أم لأن حديثاً ما كان يدور خافتاً بين هانم فودة وأمى،

حتى أنهما جلستا في الشارع بجوار الحائط. استمر حديثهما الذي خفت كأنهما لا يريدان أن يسمعهما أحد، حتـــى أن أمـــي مالـــت بالفعل على صدر هانم فودة، وعلى أذنها بالتحديـــد، فيمـــا ردتـــا الصباح على من مر عليهما، وأنا أتأمل اختفاء النجـــوم وبـــزوغ النهار، ملفوفاً بالشال حول رأسي ووجهي، لا تبين سوى عيناي. اصطبغت صدور السحب بـــالنور الأبـــيض والأحمـــر وبقيـــت مؤخراتها داكنة، ولمعت أسطح الدور والمقاعد وأبواب الـــشبابيك الشرقية ذات الحديد المبلل بالندى. تأوهت أمي فجأة "آه يا خالـــه هانم" فانتبهتُ. رأيتُ هانم فودة تنـــزع إصـــبعيها الطـــويلين ـــ مخضبين بالدماء والمخاط ـــ من تحت هدوم أمي الجالسة علـــى قرافيصها، وتهب واقفة:

ـــ قومي يا بنت الوسخة.. لسه بدري.. وجعك مسافر.

مسحت إصبعيها في ثياب أمي وانطلقت إلى مـــشوارها، ولـــم أعرف لماذا شتمت هانم فودة أمي، ولم تقل أمي لماذا تبكي، غير أنني كنت أحس بالأشياء الغريبة ـــ والنهار يطلـــع ـــ تتلاشـــى، وإن ظلت مثل عود كبريت مشتعل بقايـــا ســـيجارة هـــانم فـــودة المرمية بجوار الجدار.

حلم قصير القامة

شيء ما، غير عجز التلاميذ عن الـــرد، دفعنـــي لأن أرفـــع إصبعي في اللحظة الأخيرة متـــردداً، قبـــل أن يغـــادر المفـــتش الفصل. وشيء ما، غير نظرته اليائسة ــ وهو يترك الفــصل ــ جعلته يرى إصبعي ذلك المتردد، فيستدير:

ــ معقولة يا قصير انت تطلع بتفهم وسط ستين بغل؟.. اطلع!

أوسع زميلي بالدكة الأخيرة، ومن طرقة ضيقة بـــين صـــفي دكك، طلعت إلي السبورة. تفحصني بقرف ولم تزل أشياؤه التـــي لمها تمهيداً للخروج تحت إبطه. أشار بكفه الفارغة:

ــ امسك الطباشيرة وارسم.. اكتب.. اعمل أي حاجة.

تلقفت الطباشيرة وأعطيت وجهي للـــسبورة. رســـمت جـــذع شجرة كبيرة. كانت قامتي قصيرة وأنا أبدأ مـــن أســـفل ســـبورة سوداء كبيرة. رفعت لأول مرة من شهرين إصبعي، إذ لاح لـــي أن الجميع قد نسوا الأمر، وبدا أن ما كان يشغلني لم يعد له وجود

سوى في رأسي، وبدت بعيدة جداً ومتناهيـة أصـوات النـاظر ومدرس الألعاب وهو يصرخ وسط الفناء أن الأمر جد لا هـزل، وأن الدنيا تنورت ولسنا في كتاب الشيخ مرسي، ثم يخرجنا مـن الطابور، يفرزنا واحداً واحداً بعصاه الطويلـة، ويلـسع دون أن ينظر إلى وجوهنا. من تلسعه العصا فالأمر يعنيه ويخـرج مـن الصف. يأمرنا فنعري أقدامنا، لنمر علي الطـابور كلـه، وهـو بعصاه من خلفنا يلسع، ويحذر بأن الغد له تعامل آخر.

كنت أقول لأبي، فيقول: "ربنا يفرجها.. واجيب لك اللي انـت عايزه". ولأنها لم تكن تفرج غالباً، كانت أمي تقول إنها سـتذهب للناظر وتكلمه عن الظروف، لكنها لا تجيء، فيحدث في الفناء ما يحدث كل يوم من كشف عن السيقان والمرور أمـام الـصفوف محدقين في الأرض، ثم الوقوف في الخلف، فلا نرى بعـد ذلـك الفناء ولا الشجرة ولا النخلتين ولا نرد تحية العلم، حتى حدث ما غاب من أجله الأربعة الآخرون، ولم أعد أراهم بعد ذلك.

كانت السبورة ملساء ولامعة، وإصبع الطباشير طيِّعاً، وجـذع الشجرة ضخماً ومجعداً، تتفرع منه تلك الفروع الضخمة وتتجـه بميل لأعلي. كان الظل وارفاً ولم أدر من الـذي كـان ينـاولني أصابع الطباشير الملونة، ولا أصوات من ــ على وجه التحديد ــ تلك التي تشجعني، ولا من أي اتجـاه كانـت تـأتي همهمـات

الاستحسان، وبدا أن المفتش قد وضع دفاتره وعدل عن الخروج، حتى أنني شعرت بأن اليد التي تربت كتفي هي يده، وأن ســـاقيّ اللتين كانتا تؤلماني انفردتا قليلاً عند الركبة، واستطالت ذراعـــاي لتلون الفروع والأوراق، فتتدلى منهـــا ثمـــار ناضـــجة، وهمهـــم المفتش: أين رأى هذه الشجرة.

إذ تطلب الأمر في البداية وقتاً طويلاً، منذ اهتديت وحدي إلي جلباب فهمي المعلق علي الحائط، لأبدو عادياً، فلا يعـــوقني فـــي السير، وأمر لأول مرة عبر البوابة الحديدية، وأقف في الطـــابور وأدخل الفصل دون أن يستوقفني أحد، بدا أن الجميـــع ــ النـــاظر والعيال وأستاذ الألعاب ــ على استعداد لنسيان الأمر تماماً، علـــى أن أقف كل يوم في الصف الأخير للطابور، ثانياً ركبتـــيّ قلـــيلاً، فلا أرى الفناء ولا الشجرة ولا العلم، وآخذاً ــ بـــشكل تلقـــائي ــ مكاناً ليس في المقدمة وليس في المؤخرة حين نستدير للفـــصول. كنت مرتاحاً أن تمر الأيام على هذا النحـــو دون أن يلحـــظ أحـــد شيئاً، وإن تطلب الأمر جهداً أكبر، حين لم تأتِ أمي للناظر، ولـــم يفرجها ربنا ليأتي أبي بكل ما أطلب، حتـــى أنـــه بـــدا يتجنـــب مواجهتي بعينيه، متسائلاً بينه وبين نفسه كلما عاد آخـــر النهـــار دون عمل، إن كان ما يطلبونه مهمّاً في التعليم لهذه الدرجة. ولكم بدوت طبيعياً كولد قصير القامة، متحملاً الألم عند الركبتين، حتى

أن مدرس الألعاب والناظر لم يلفت نظرهما الأمـــر وأنـــا أســـير وأجري وألعب على هذا النحو، حتى حينما لم أكن ألتـــزم بـــشكل صارم بمكاني في آخر الطابور، أو أرد مختلساً تحية العلم، غيـــر أن الجميع حرص منذ البداية على أن لا يتغير مكاني: منتـــصف الدكة الوسطى، في آخر صف.

كيف اتسعت السبورة لنخلتين بينهما علم كبير علـــى صـــاري يقف على ربوة من أسمنت؟ قلت: هذه مدرستي، وكـــان الحبـــل النازل من العلم بين إصبعيّ. جذبته فـــارتفع العلـــم ثـــم رفـــرف وغطى نوفمبر ولم يبق من التاريخ سوى ١٩٧٠ وميم صـــغيرة. حيث كان العيال والطابور والفناء ممتداً، لم أرســـم النـــاظر ولا مدرس الألعاب، ورسمت لجميع العيال أحذيـــة جميلـــة وملونـــة، وكنت أمسك بالحبل ما أزال حين رفعت هامتي لأعلى وزعقت:

ــ تحيا الجمهورية العربية المتحدة.

ردّد الفصل جميعاً من خلفي، ووقفوا وعظّموا بأيديهم، وكنـــت أستطيل وأقبض بكلتا يديّ علي حبل العلم:

ــ عاش الزعيم جمال عبد الناصر.

كيف سكت التلاميذ فجأة وسددوا أعينهم إلـــي أســـفل، حيـــث قدماي الحافيتان تلتصقان بالبلاط، والجلباب ينحسر عن الـــسمانة، حتى أن المفتش دفن وجهه بين كفيه، وعيون العيال التي تدمع لم

تعد حادة. بدوت خجولا، وعادت ركبتاي إلي الانثناء مرة أخرى، وعاد جلباب فهمي ــ الله يرحمه ــ ليجرجر على الأرض، وأنــا أنكفئ وأحاول النهوض فلا أستطيع، بينما الولــدان فــي الدكــة الأخيرة يوسعان لي وآثار الطباشير في أصابعي.

الركض في مساحة خضراء

أطفأوا النور ــ كما طلبَت ــ وخرجوا، فبدا وجهها العجــوز في ضوء الموقد مريحاً. تــسربت رائحــة البخــور المحتــرق وانتفضت الشبّة. اقتربَت مني وأصرت أن أبــوح. كــشفتُ لهــا ظهري وقلت:

ــ يزعجني نباحهم المتصل هكذا وانتشارهم المريب في كــل مكان.

ثقبت ورقة بيضاء على شكل عروسة وتمتمت:

ــ هذه العيون تشك وتقلع.

حين ركضت خلفها في القمح المسوّر بالنخيل، كانت تــضحك وتزيح شعرها المبلول للخلف وتــراوغ. قلــت: كفــى. ففركــت السنابل على كفها وحط الحمام من النخيل الجانبي. قلــت: كفــى. فركضت منتشية ومالت برأسها الصغير للخلف وغنت:

ــ يا مطرة.. رخي.. رخي.

في اللحظة التي أوشكت أن أمسك ذيل فستانها، بين العشب المبلول والقمح، نشعت منه بقعة حمراء، فكففت عن الركض وضحكت. أمسكت ذيل فستانها المخضب وقلت: كفى. فأومأت برأسها ثم جلست، وكان الحمام الذي شبع يأخذ أماكنه على النخيل الجانبي، يدس رأسه تحت جناحيه ويغمغم، والناس خلف زجاج القطار الأبيض ــ الذي مر سريعاً ومغسولاً ــ يبتسمون ويلوحون. بينما هي متكئة على العشب تغنى، كان فستانها الأبيض المبلول لصق نهديها الصغيرين، والمساحة الخضراء ممتدة.

ــ هذه العيون تَشك وتُقلَع.

مزقوا كل أوراقي الخاصة، ودفعوني نحو الحائط. قلت مُصراً إنني رأيتها بعينيّ هاتين وكان القطار أبيض ومغسولاً. لم يصدقوا فأقسمت ــ وكنت أبكى ــ أنهم بالفعل ابتسموا ولوّحوا من خلف الزجاج، لكنهم مزقوا كل شئ. رسمتها على جدار غرفتي وجريت إلى أمي أهزها متوسلا:

ــ هكذا رأيتها.. هل تصدقينني؟.

ثم هززتها مرة أخرى، فأمسكت ذراعيّ وقالت:

ــ أصدقك.. نعم أصدقك.

ثم بكت.

ـ هذه العيون تشك وتقلع.

على مثلث النجيل المترب جففت عرقي. أفهموني بكل السبل أن ما قلته مستحيل. قلت: إنني لم أعد أفكر في ذلك وربما نسيت كل شئ، وسألتهم إن كان باستطاعتي أن أتمشى قليلاً، فلم يمانعوا. راودتني رغبة في الركض، غير أن مثلث النجيل كان ضيقاً ومحاصراً بزحام الميدان. حين بدا الميدان خالياً منهم، ركضتُ. رأيتهم يبرزون من حوائط الميدان، وقالت امرأة جالسة على مقعد رخامي: كفى. ركضتُ. نشبوا أنيابهم في ظهري، فقامت مذعورة على ذيل جلبابها الأسود بقعة داكنة. صرخت بأعلى صوتي. ضمتني وقالت:

ـ مالك؟

لم أرد. كان النباح يخفت، والعروسة تشتعل في الموقد، وكانت تتمتم:

ـ هذه العيون تَشُك وتُقلع.

برماد العروسة المحترق، رسمَت على جبيني عروسة، ومرت بكفها على رأسي وظهري، فتثاءبتُ. تثاءبتْ هي الأخرى وشهقت ثم تفت في النار. كانت الشبة السوداء تأخذ شكل الكلاب المتحفزة.

ـ عيون الكلاب تشك و تقلع.

زعقَت:

ــ ادهس.

دهست الشبة بكعبي الشمال، فارتفع النباح المختلط بالعويل ثم انقطع. قالت: كفى. فرفعتُ كعبي، ولمت المسحوق فـــي صـــرة ورمتها في مفترق شارعين ولم تبسمل. خلف البخـــور المطلـــق، كان القطار جامحاً ومساحات القمح ممتدة وهـــي تحـــت المطـــر تركض، وسط الحمام المرفرف، علـــى ذيـــل فـــستانها الأبـــيض المبلول بقعة حمراء مفروشة.

طائر خفيف

.. وكنا مجتمعين أمام دكانه المغلق، نتوقـــع مجيئـــه مـــن أي اتجاه، مستبعدين أن يكون لما حدث بالأمس علاقة بـــذلك، حـــين كان يجلس كعادته، على نفس الدكة، ليفصل في مشكلة لـــم تكـــن عويصة، لكنه على غير العادة استأذن بشكل مفاجئ، مؤجلاً حـــل المشكلة لموعد آخر، ثم نفض البالطو وأغلق دكانه ولم يعد. طال انتظارنا فجربنا أن نشتبك، إذ عودنا أن يبرز ـــ لا ندري من أين ـــ في نفس لحظة خروجنا بالفئوس والسكاكين والـــشوم، ينـــدس بجسمه النحيف وسط المعركة: "أظن يا زفت هتنبسط لما تـــدخل السجن وللا عيالك يتيتموا؟" وينزل كفه علـــى صـــدغ أحـــدنا ـــ الأقرب غالباً ـــ بعشم، فيستسلم الزفت الذي كان هائجـــاً ويـــسلم السكين، ويقف الآخر كأن ماءً بارداً دُلق عليه، فيرمـــي شـــومته جانباً، وتتراجع تباعاً إلى حيث أتت أفواج المتطوعين والمجاملين من الجانبين.

تجاوز اشتباكنا مرحلة الهزل، وبدا من الصعب التوقف حـــين صارت كفوفنا مؤلمة والضرب حقيقياً، لكنه لـــم يجـــئ. وكانـــت معاركنا من هذا الشكل تجهض وهي بعد فـــي طـــور الزعيـــق والشتائم فجأة، عندما يتذكر المتعاركون وحـــدهم أن مـــآلهم إلـــى دكته، حيث تنبعث رائحة العطور من دكانه، فينـــصحنا بـــالرفق بالحمير في مسرى والعيال في بؤونه، ويوصـــينا بـــالحريم فـــي المواسم، والموتى في الأخمسة، واليتامى في الأعيـــاد، ويطمئننـــا من الكلاب في الربيع، واللصوص في الصيف، والـــشياطين فـــي رمضان، ويدهشنا بأسلوبه حين يكتب العقود، ويفـــرق الحـــدود، ويقيس المساحات، وسرعته في تحويـــل القـــراريط إلـــي أمتـــار والأمتار إلي أذرع وأقدام، ودقته في تقدير زكاة الأرض والزرع والبهائم، وينبئنا بمواقيت جنون النساء وخـــف الـــزرع وجنـــي المحاصيل، محتفظاً في جيب البالطو بقلم كوبيا ونوتة صغيرة.

وكان قد امتنع تقريباً ـــ منذ ماتت الحاجـــة ـــ عـــن الأكـــل، وطال شروده على دكته، لا ينغلق دكانه غير ساعة واحدة، يقـــوم بعدها مفزوعاً لصلاة الفجر، فنحفَ جسمه، وكنا نحذره فيـــراوغ: "حلو كده عشان جمعه ميتعبش". وحين قال له جرجس الأجزجي: "واحد وخمسين رطل"، استغرب ثم تذكر أنه وزن نفسه بالعـــصا، فدخل عند دسوقي البقال ووزنها، وضحك لأن العصا كانت ســـتة

أرطال، فخلع البالطو ولم يزل على استغرابه، ووضعه على الكفة، وضحك دسوقي قبل أن يقول: "حداشر رطل"، فتنهد بارتياح متحاشياً نظراتنا المتعجبة: "عال كده.. عايزين إيه تاني؟ أربعة وتلاتين رطل.. إيه؟ هننهب؟" وجلس على دكته ليفصل في مشكلة لم تكن عويصة، وضحك كما لم يضحك منذ موتته الأولى، حين بقي في مشرحة المستشفى الأميري ساعتين، حتى نستخرج شهادة الوفاة المعلقة في الدكان حتى الآن، وتحضره سيارة الإسعاف جاهزاً، لولا أن جمعة أبو الجود الذي لا يثق في غسل المشرحة قرر إعادة الغسل، حالما توضب له التربة ويكتب عبد الوهاب مرعي الخطاط على شاهدها اسمه وتاريخ انتقاله، ولولا بكاء الحاجة المتهدج، الذي رقق ــ على غير العادة ــ قلب جمعه، فسمح ــ مقابل أن تكف عن البكاء ــ بأن تلقي عليه نظرة أخيرة، لأن البكاء لا يعيد موتى، فترتمي عليه وهي تقول: "طيب يا جمعه" وتهز ذراعيه المعقودتين أمام صدره: "ده اللي اتفقنا عليه.. كده أهون عليك يا حاج". كانت تهزه وجمعه يجذبها، حتى انتبه كمن يستيقظ، وتلفت حوله كمن يفيق من حلم، لتلمع من لحظتها عيناه كلما حلّفه أحد بالموتة الأولى، ويهز رأسه ويتهدج صوته، ويفي علي أي نحو بما طلب منه، بيد أنه لم ينزلق مرة ليحكي لمخلوق ــ حتى الحاجة ــ عن تفاصيل هذه

الموتة، وإن ضغط عليه أحد في غمرة ضحكه واسترساله، يذهب الضحك، ويتوقف الكلام وحده، وتلمع عيناه بدموعه التي صارت أكثر قرباً منذ موت الحاجة، وتنزل وحدها كلمـا تـذكر أن "زاد المال" منعته من رؤية الحاجة ويتمتم: "كان فيها إيه لو بصيت؟"، وتنهمر كلما رفض جمعة أمنيته القديمة، فيتوسل إليه ويجذبه من هدومه كلما قام: "يا جمعة خلليك حنـين.. أنـا اللـي طالـب.. وهوصي بكده"، فيخلص جمعة جلبابه من يده: "ولو.. ميـنفعش.. أقول لربنا إيه؟".

بدا أن الاشتباك قد اتسع حتى انتاب بعضنا الـشك فيمـا لـو خرج، فإنه سيصير من الصعب عليه أن يفعل ككل مرة ويخـرج محفظته، قائلاً إنه من جنيه لألف مع هذا الولد الغلبان، فتسقط ـــ كما حدث بالأمس ـــ المحفظة المنتفخة من تلقاء نفسها، أو ربمـا بفعل الرعشة التي بدأنا نلحظها أخيراً في يديه، وتمتد أيدينا، فـتلم ما خرج من أحشائها في دهشة: جريدة قديمة مطوية وورقة فئـة ربع جنيه، فنضحك فيستأذن بشكل مفاجئ مؤجلاً حـل المـشكلة لوقت آخر. لكننا كنا نطرق بابه بلهفة ونتلفت قبل أن يسقط مـن الكتلة المتعاركة أحد، حتى ارتطمت الكتلة المـشتبكة ببابـه فـي الثامنة والنصف، لنجد الراديو مفتوحا. تخطينـا أجولـة البخـور والنعناع والزعتر والزنجبيل والشاي الأخضر، فوجـدنا مكانـه

شاغراً، وتسمرت أجسادنا لحظة حين وجدنا الحاجة كأنها نائمة في مكانها، دمية بنفس الحجم، بجلبابها زهر الكتان، وطرحتها الحرير، مغطاة بحرام صوفي، ينثني ذراعها على وجهها كأنها تخبئ دموعها المعتادة عندما تسمع "همسة عتاب". ضرب جمعه أبو الجود جبهته كمن يتذكر، وجرى ونحن خلفه نحو المقابر، بنفس الكتلة المتعاركة التي لم يعرف أحد منا كيف انفكت بهذه السرعة وهذا النحو لنرى بأعيننا البالطو والعصا وفردتي الحذاء أمام القبر، وحافة الباب مرفوعة قليلا بما يسمح لطائر خفيف أن يدخل.

المنشغلون

منك لله يا برهومة! كيف انسابت عبر حوائط المسجد أصـــداء نفيرك القديم، فتدب فينا الدهشة وهذا الصحو الغريب ونحن نؤدي بكسل ركعة الوتر ونتثاءب، وتقودنا أصداؤه المتعالية كأنين نـــاي كبير إلي ذات المكان الذي لم نتصور أن يضمنا بعد ثلاثين عامـــاً ــ من مات منا ومن عاش ــ لنلتف حول تعريـــشتك القديمـــة، وسط حقل من العصافير الملونة كان قمحاً منـــذ قليـــل، أخـــضر بسنابل مشرعة؟. منك لله يا برهومة! وكيف أطفأت الكـــون كلـــه لتضيء قطوف العنب المدلاة من تعريشتك، فنرى أنفـــسنا بـــذلك الوضوح ــ كأننا عدنا صغاراً ــ نتزاحم حول نفيرك المنتـــصب أسفل التعريشة، فإذا بك تفعلها وتسحبنا بنفيرك حتى هنا، لتوقعنـــا في حرج مع جمعة أبو الجود بنظراته القاسية التي تتساءل لمـــاذا جئنا، وهو يقلبك في رقدتك هكذا وحيداً، طالبـــا الكفـــن بـــصوته الفظيع، ونصبح كمن وقع في مصيدة، فلا ينفع التـــسحب للخلـــف

وأصابعه الممدودة تتلعب متسائلة:

ــ فين الكفن؟

ذيل الكلب لن ينعدل يا برهومة! نتحاشــى مواجهــة جمعــة فتواجهنا به، وتعلم أنه من آخر المستحيلات أن يتبرع أحدنا بخيط في كفن لك، وتضعنا في هذا الموقف المحرج، فهل أنــت ســعيد الآن وأنت بين يديه بينما تفكيرنا منحصر في البحث عــن علــة للخروج، أم تتشفى وهو يوقفنا بذراعيه الطويلتين مستهزئاً:

ــ الكفن يا بني آدمين؟.. حد يجيب الكفن من النفير.

هاأنت تموت ولا تموت ألغازك، فلم تقل لنا إنك اتفقت أثنــاء حياتك مع جمعة أبو الجود وخبأت كفنك داخل البوق وبداخله أجر جمعة، بذات الغموض الذي لم نصل معه إلى جواب حقيقي عمــا كنت تجنيه مقابل سرقاتك الصغيرة، تلك التي تتعــرض بــسببها لضرب يقربك من الموت، حين تفاجأ بنا نبرز لك من كل اتجــاه، فتنكمش، وتتقي بذراعيك لكماتنا، ثم تسقط، فتسقط وحدها الأشياء التي تكون صغيرة في الغالب ورخيصة من بين طيّات ملابــسك: كتكوت صغير أو باكو شاي أو عملة فضية.

واستطعت بخبثك وصمتك أن تغذي الخلاف بيننا إلى درجــة أن يرى عقل قرارنا بمنعك من دخول المسجد ــ قبل أن يــصير فيما بعد صديقك ــ اجتهاداً خاطئاً، فلا أحد يعلم من الذي يتقبــل

الله منه، ويدعو إلى الحكمة في علاج هذه الأمور. كدنا نقتتع لولا أن بادر عبد الرحمن الظني بغيرته وحسم الأمر لمّا رآك تتسحب من باب المسجد فطردك، غير أنك استطعت بغموضك أن تعمــق الخلاف حين رآك بعضنا تؤدي الصلاة وحدك على عجــل فــي دارك قبل أن تغادرها، أو في خوف على رأس غيطك، بعيداً عن الأعين كأن أحداً سيخرجك منها عنوة، ليتعمق وحده الخلاف بعد ذلك أكثر حين يروى المعداوى أنه رآك تــصلي العــصر علــى شاطئ النهر مخطئاً في التلاوة وفي غير اتجاه القبلة، فأشار لــك بالاتجاه الصحيح ثم عبر بالمعدية، فإذا بك تنادي وقــد فرشــت منديلك على الماء وركبته حتى منتصف النهــر ومــسكت حافــة المعدية لتسأله في أي اتجاه أمرك أن تصلي. يصرخ الظني فينــا: "ما اتخذ الله من ولي جاهل" لتتعدل الكفة مرة أخرى، الظني الذي جعلته يعيد الجمعة ظهراً، وفي كل مرة، نسأله ينتف على شــماله في حيرة:

ــ مش عارف.. اتهيأ لي إن الواد ابن الكلب النجس ده كــان بيصلي جنبى!

فهُيئت لنا كل جمعة، تصلي متوجساً في الصف الأخير قــرب الباب، أو في الشارع متخذاً آخر صفوف المتأخرين، محافظــاً ــ كي لا تلفت الانتباه ــ على عدم التــصاق المناكــب أو الأقــدام،

حريصا على ألا يستقيم الصف من عندك، بالرجوع قليلاً للخلـف فلا يتعرف عليك جارك، لتكون حين يسلم الإمام أول من ينطلـق للشارع، دون أن يدركك أحد، فأضفنا الطـوب والحجـارة إلـى شتائمنا واسمك الجديد، وظللنا نصوب نحوك بقسوة وإحكام حتـى قفزت بكرباجك فجأة بيننا فأصابنا الذعر، وتفرقنا كل في اتجـاه وأنت تطوح الكرباج في الهواء قدر ما تطول يدك، وتلف جسمك متعمداً أن يطالنا دون أن تقصد أحداً بعينه. ظللنا نجـري ونحـن ننظر نحوك بفزع ورهبة دون أن نصدق أن يكون دماً كل هـذا المتساقط من أنحاء جسمك، حتى أصابنا التعـب فارتمينـا علـى الأرض، والتقت عيوننا جميعاً بعينيك، وأنت تقترب منا وتبكـي، لكنك وعلى غير ما نتوقع، لحقت بنا ثم تخطيتنا ـ كأنك لم ترنـا ـ ولم يكن بيدك كرباج، متجهاً نحو الخلاء، لتقيم في نفس الليلـة تعريشتك هذه.

مرات قليلة تلك التي كنا نشاهدك تضحك ملء صدرك حـين تكون مع عقل، تضحكان بقلبيكما لا يوقفكمـا عـن الـضحك إلا ظهور أحدنا. يتوقف الضحك كغصة في الحلـق، تعتـدلان فـي جلستكما، يدور الحديث مصطنعاً وعاديـاً وبـارداً وخاليـاً مـن الروح. رغم أننا لم نعد منذ فترة طويلة نرى منك ما يـستوجب الضرب، إلا أننا استبعدنا أن تكف يدك ـ التي تأكلـك دائمـاً ـ

عن السرقة، واعتبرنا أن جسدك الـذي اعتـاد الـضرب طيلـة السنوات السابقة قد استساغه وجبة يأخذها كـل يـوم، وإن بـالغ بعضنا في تفسير جلوسكما عند النفير بأن أحدكما يكيل للآخر كل يوم معلوماً من الضرب المبرح، مقابل أن يؤدي لـه الآخـر ــ نستغفر الله ــ فعلا تهتز له سبع سماوات.

أنت المتسبب ــ وليس وخم الربيع الممتزج بـصيف ــ فـي الرخاوة والثقل التي جثمت على أرواحنا طـوال اليـوم ونحـن نتطارح تحت أشجار التوت كمن أكل داتورة ونتساءل كلما نـادى الظني عقب كل أذان عمن يكون إبراهيم محمد سليمان، ويفرد في كسل كل منا قميصه في اتجاهٍ ظنه القبلة، لنصلي الظهـر قعـوداً وعلى جنوبنا، ويخلو المسجد لأول مرة في ثلاثة أوقات إلا مـن الظني المنطرح هو الآخر تحت مروحـة الـسقف منتظـراً رد برنامج بريد الإسلام على سؤاله العاجل عن حكم صلاة الجنـازة على اللوطي أو النوري. ولأن ما يؤذي الحي يؤذي الميـت فقـد رفض الظني النداء عليك باسم الشهرة، والظنـي الحـريص ألا يخطئ أمهلك ثلاثة أوقات، بعدها أذن للعشاء وأقام الـصلاة. وإذا كنا بالكاد نتذكر أننا صلينا الظهر بالحقول، ولا نعرف أين صلينا العصر والمغرب، فهل كان لنا أن نذكر بعد ثلاثـين عامـاً أنـك إبراهيم محمد سليمان، دون أن ينبعث صوت نفيرك القديم مخترقاً

الليلة نوافذ المسجد وحوائطه في ركعة الوتر؟

تعالى الهمس فلم نستطع ونحن خلف عقل للصلاة أو أمامه في درس المغرب، أن نمنع عيوننا أن تفحصه، تعاين ملامحه التي اقتربت من النساء. بينما نستغفر الله من وسوسة الشيطان تأكد لبعضنا بروز ردفيه، وللآخرين نعومة صوته في التلاوة. ولاح لنا في مشيته المتمهلة عقب الصلاة ثابت الرأس كفتاة تتأود تفاصيل جسدها تحت بلاص ممتلئ، وكان في قعدته ــ حتى في الدرس ــ أقرب لامرأة أمام الفرن. كنا نناقش ما توصلنا إليه ونستبعد ما نراه مبالغة. استغرب عقل من سرحاننا وقلة تركيزنا، فاختصر دروس المغرب، ثم امتنع نهائياً بعد أن وقف الظني الذي تعمد ألا يصلي خلفه منادياً بغضب بينما ينشف الوضوء عن ساعديه وهو يقيم الصلاة على من فاته المغرب أو من ظن أن صلاته باطلة. وجه كلامه نحونا في حلقة الدرس ونوى متوتراً، يطغى الغضب في ملامحه على سكينة الصلاة. طغت نبرات تلاوته العالية على الدرس، فخفض عقل صوته أولاً ثم أغلق كتبه حتى ينتهي من ركعتي الجهر، إلا أن الظني الذي انتهى من الصلاة لم يسترح حتى أبرأ ذمته موجها إصبعيه نحو السقف وكلامه نحو الدرس:

ــ اللهم هل بلغت.. ما يبقاش الواحد متلتل ذنوب وييجي

يزودها ويفتي.. كده حرام.. آه.. اللهم فاشهد.

سمعنا ولم نر، ولم يكن لـــدينا اســـتعداد أن نقبـــل غيـــر مـــا تصورناه: تأكلك يدك يا برهومة فلا تهدأ حتى تلهــف شــيئا، أي شيء فيضربك أحد كي تهدأ يدك، وعقـــل تتلـــوى بداخلـــه دودة طويلة، فيتلوى كامرأة. كيف اكتملت فـــي رءوســـنا الـــصورة: ضرب وتأوه ثم وطء وصراخ، حتى تهدأ اليـــد التـــي تـــصرخ والدودة التي تتلوى تستكين؟ لا تسألنا، فالمتربصون منا والـــذين في قلوبهم شك لم يظفروا حين اقتفوا أثركما في الحقـــول وعلـــى شواطئ الترع وبين عيدان القمح، سوى برؤيتكما معاً عند النفيـــر تضحكان، أو عودته بكتبه تحت إبطه في أوقـــات متـــأخرة مـــن الحقول.

حتى النفير الذي نصبه محمد أفنـــدي علـــوان زمنـــا ليبعـــد العصافير عن القمح، كان شاهداً على نحـــسك، منـــذ اســـتأجرك لنفخه، أنت الذي لم تفلح في عمل أُسند إليك، وسوف لا ننسى مـــا فعله بك حسن قصاص الحمير أو الشافعي شـــامة الـــذي يـــدهك الدور أو الغريب مبيض النحاس أو سروحك فيمـــا بعـــد بعربـــة الجاز ثم نازحاً للكبنيهات بجردليك المعلقين بعصا علـــى كتفـــك الأيمن، ثم بائعاً للبطاطا المشوية، والجميز، وكيف يسوقك نحسك ــ كلما ضاقت بك السبل ــ إلـــي طريقنـــا فنتتبعـــك ونفـــضحك

ونضربك. هل عرفت لماذا أسميناك برهومة؟ نفخته فاجتمعت العصافير الملونة من كل صوب ووقفت على عيدان القمح، أصابت الحسرة محمد أفندي علوان في بطنه فأخذ يضربك بجنون دون أن يعطيك أجرك المتفق عليه: رغيفان وقطعة جبن. وسكت إلى الأبد نفيره الذي سينسب فيما بعد هكذا ببساطة إليك، ولن يذكر سوى القليلون منا أنه نفير القاطرة ستيفنسون التي خرجت عن قضبانها لتغرق في الرياح التوفيقي ببنها في مطلع١٩٠٠، وأن محمد أفندي علوان قد جلبه وأضاف له البوق الكبير ليضخم الصوت.

لن تجوز عليك الآن سوى الرحمة، وأنت متمدد في ضعف بين يدي جمعة، وقد مرت ثلاثون عاماً على علقتك الأخيرة، ونحن نطاردك وأنت تقوم وتسقط، مستسيغين اسمك الجديد في الشتائم، فترتبك وتسقط، ليخرج كنكوت يصوصو من جيبك، ومن جيبك الآخر باكو شاي سيلاني، دون أن تستحوذ سرقات أخرى كبيرة للصوص آخرين محترفين على رءوسنا مثلما التصقت بأذهاننا سرقاتك أنت الذي ترقد الآن بين يدي ربك إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك، وسوف نتداول فيما بيننا لثلاثين سنة أخرى، دون أن تخبو، رواية الظني في درس المغرب الذي رآك بعينيه اللتين سيأكلهما الدود نائماً على كوم الردم، أمام غيط جارك

متظاهراً بالنوم في ظل الزنزلخت، بينما تعبئ في حقيقة الأمر بيدك ـ التي تأكلك ـ التراب في سيالة جلبابك، حتى إذا امتلأت السيالة تظاهرت بالانتقال إلي كوم الردم على رأس غيطك، ورقدت على جنبك ثم أفرغتها.

غُرْتَ من وجوهنا كما تغور المياه في الآبار، لتسكن كالجان الخلاء والمزارع، واعتزلتنا ليس مهماً برغبة من فينا، فلماذا تسري في أحاديثنا وتتمدد في جلساتنا كأنما لا شاغل لنا سواك؟ إذ كانت مشكلتك دائماً معنا هي الوضوح الذي ننشده بينما أنت تصر على الغموض. لو كنت تتكلم، أو تدافع لهان الأمر، لكنك تصمت، ويا ليتك تصمت والسلام، لكنك تثير فزعنا حين تنبئ بصمتك عما نفعله في بيوتنا، بينما تدّعي العبط والمسكنة وأحياناً الحكمة. لماذا لا تستقر على صورة واحدة؟ هل تستعين بأعوان من الجن أو خدام من الملائكة؟ وفيما لا نستطيع أن نصدقك، لا نستطيع أيضاً أن نكذب أعيننا التي رأتك وأنت بين يدي محمد أفندي علوان، يضربك ضرباً مبرحاً وأنت صامت تبكي، حتى إذا بَعُدَ عنك بمسافة قمت غاضباً، ولأول مرة نراك غاضباً يا برهومة وأنت تبحث في الأرض عن شيء تضربه به، حتى وجدت خشبة، نعم خشبة يا برهومة، مسكتها بيدك وأنت تبكي وتوجهها نحوه وتقول: "والله لاضربك بالنار". وضحكنا يا

برهومة، ضحكنا حتى سقطنا على أقفيتنا، إلى أن أفقنا على صوت النار يخرج من الخشبة إلى قلب محمد أفندي علوان، وظللت ممسكاً بالخشبة، ذات الخشبة التي أنقذتك ـ مع شهود العيان ـ من الموت على يد الغفر ومخبري المركز.

صرخ الظني: "ما اتخذ الله من وليّ جاهل" فقال عقل معانداً: "وإن اتخذه علّمه". ولأن العند يورث الكفر فقد لجأ إليك ليتعلم منك! وصرتما صديقين، أنت بثيابك المهلهة وهو بعلمه وكتبه وهندامه، ولم تأبها بكلام الظني، ليروي المعداوي فيما بعد أن عقل الذي انتصر في البر الآخر في ثلاث وثلاثين مناظرة على علماء من مختلف الملل، وقف صامتاً في المناظرة الأخيرة أمام طلبهم الغريب والمفاجئ، طالباً المزيد من الوقت. ثم عرض الأمر مهموماً عليك يا برهومة، لتشير عليه أن يقبل، وتأمره أن يلبس أغلى ما عنده ويركب دابته النظيفة لتسحبها له بثيابك المهلهلة، حتى إذا جاء الموعد وطلبوا منه أن يوقظ ميّتهم، أوعزت إليه أن يقول بثقة:

ـ لن أنزل لأوقظ ميتاً واحداً، اطلبوا من خادمي هذا أن يوقظه.

وأيقظته يا برهومة كما توقظ النائم، ليدخلوا في دين الله أفواجاً.

كان من الضروري إذن ـ حتى وأنت تـشغلنا فـي ضـوء قطوف العنب المدلاة ككهرمان وجمعة أبو الجود يفحص الكفن ـ أن نفتش بدأب في كوخك الصغير عن شيء يؤكد ما ذهبنا إليـه طوال هذا التاريخ، حتى حدث ما لم نتوقعه، فصديقك القديم عقل، وكما توقع عبد الرحمن، لم يحضر خوفا من عيوننا المتربصة فلا تنفضح مشاعره، وتأكد البناء الذي حرصنا ألا يتهاوى حين رأيناه مضطجعاً في دهليز داره، حوله كتبه المفتوحة، كأنمـا موتـك لا يعنيه، حتى حين دققنا في عينيه الثـابتتين والمتحجـرتين غيـر المهتمتين بوجودنا، وجدنا الدم يملؤهما وهما مفتوحتان ومحدقتان للبعيد.

وكان من المنطقي وقد شغلتنا أن لا ننتبه لأسراب الحمام التي كانت تطوف بيننا بأرجلها الصغيرة ولا الإوز العراقـي برقابـه الطويلة، ولا لسرب الهداهد وأبي فصادة أعلـى التعريـشة، ولا نرى الكلب والثلاثة أزواج من أبي الحصين، وإن انتبه الكثيرون منا إلي حقل العصافير الملونة الذي كان قمحاً منذ قليل، يتمـاوج بسنابله المشرعة، بينما تناهى إلى آذان الجميع ـ وبوضـوح ـ ذلك النغم المتهادي كنواح ناي كبير من نفيرك القديم، كلما سحب جمعة أبو الجود قطعة من كفنك المكور في بوقه.

المصور يدخل الكادر

كانوا بنظراتهم الزائغة، كأنما يسيرون نحو المجهول. يتطلعون إلي الوراء كفئران تستشعر الخطر. يعتريهم الارتباك وهم يحملون صغارهم وأغراضهم كلما قابلتهم الأرتال مرتدة ومنهكة، فيبقون على مبعدة من الحدود مكدسين. لا تقدم ولا رجوع.

كنت معنياً ــ من موقعي المرتفع ــ بالتقاط صورة كلية لحشودهم التي بدت من ارتباكها وتكدسها بطول الصحراء كمسيرة ضخمة لا تتحرك، وما إن تبينت من موقعي أن الحدود قد أغلقت في وجوههم، حتى قربتُ الكاميرا برشاقة في لقطات متفرقة وسريعة، لكسر سكون المشهد الكلي. استنتجت من ملامحهم المتألمة والمجهدة، أن الذين يئنون تحت صفائح المياه والجراكن، هم الشيوخ، بينما النساء يحملن الصرر ويسحبن أطفالاً بدوْا كأنهم يصرخون وهم يرفعون أرجلهم الحافية عن

رمال ملتهبة، دون أن يكون بإمكانهم التوقف، كبعض المستسلمين في المؤخرة ــ رغم الهجير ــ لالتقاط الأنفاس.

صار بوسعي التقاط المشاعر من تعبيـرات الوجـوه لحظـة معرفتهم بإغلاق الحدود، ولحظة سماعهم للقصف القريب، فبـدا المعمِّر وهو يتلمس بذراعه المفرودة كتف مرافقه الصبي وبيـده الثانية العكاز وساقه الممتدة للأمام بمساحة الكادر، كأنه يتحـسس ــ حذراً ــ طريقاً غير معلوم، ويتلفت للخلف مرهِفاً آذانه.

صحراء ممتدة. لا أول لها ولا آخر. شـمس حـادة ورمـال ساخنة. جموع من البشر في وقفة منتظرة ومرتبكة. كأنما سيرك كبير قد نُصب. من خبرتي الـسابقة كمـصور لعـالم الحيـوان والكائنات الدقيقة، قطّعت اللقطة الكلية بلقطـات زووم متفرقـة، لأتمكن من التقاط العلاقات الصغيرة بين هذه الجمـوع، فتقـاطع المتكالبون على الماء مع الفضاء الفسيح، والمتخلفون في المؤخرة مع الساعين في المقدمة، ومن سقطوا تحت الأقدام مع الـرءوس الكثيرة التي بدت كنقط سوداء. مزجت اللقطتين في لقطة واحـدة: أقدام حافية وقرص الشمس المتوهج، وعجوز يبلع ريقه بصعوبة مع السراب في الخلفية، وحجران صغيران كأنهما طفـلان مـع خلفية ملساء من رمل لم تطأه قدم.

كانت اللقطات لاهثة وسريعة وغير مترابطة لأول وهلة، إلا

أنهم بعد فترة بدوا من إشاراتهم وحركات الشفاه والأذرع الممدودة والكفوف المقتربة والمتباعدة كأنهم يعرفون بعضهم، ويتفاهمون في الغالب بلغة محلية واحدة، وانتظمت مجموعات منهم في صفوف طويلة خلف شخص، يقوم فيقومون، يجلس فيجلسون، ينحني فينحنون برءوسهم نحو الرمال. حتى الدواب النافقة والدراجات المرمية والعربات الخشبية والأواني الفارغة لم تهملها الكاميرا، وكما بدت مدهشة رقتهم وهم يضعون صغارهم تحت خيامهم ومظلاتهم المتفرقة، تجلّت قسوتهم وهم يحفرون في الأرض حفراً كبيرة، يلقون فيها بعضهم البعض ويهيلون الرمال، ثم يعودون فيتعانقون.

منذ متى وأنا مغرم بالتفاصيل الصغيرة؟ كنت أضع العيّنة علي الشريحة الزجاجية وأثبّتُ العدسة، فلا أرفع عيني حتى أحدد العدد الإجمالي، وأرصد الحركة الأمامية فقط، وأحسب النسبة المئوية للمشوهين، وأحدد نوع التشوه إن كان قطعاً للرأس أو قطعاً للذيل، ومعدل الموت في الساعات الثلاث الأولى من أخذ العينة، لأنتهي بكتابة تقرير وافٍ بالعين المجردة ومن خلال التفاصيل الصغيرة لعدسات المجهر الضوئي الثلاث.

قبل أن يصير المشهد مألوفاً، وتعود الصورة إلى السكون، كنت أدور بالكاميرا ماسحاً الفضاء الشاسع والرمال الواسعة بحثاً

عن فريقي الذي سيأتي عما قليل إلى هذا الموقع المرتفع ليزودني بكل ما أحتاجه بعد أن أوشكت أشيائي على النفاد. اصطدمت مرة أخرى بالولدين. كانا بالفعل كحجرين، يبعدان بمسافة طويلة عـــن الحشود، ولا يتجاوز أكبرهما السنوات الخمـــس. مـــلأت الكـــادر بوجه الصغير وهو يبكي ويتلفت. لم يكن حوله سوى رمل أملس، بينما ذراع الأكبر من خارج الكادر تحوط عنقه وتهدئه. لم يكــف فربتت اليد كتفه ودخلت إلى الكادر رأس الكبير تقبّلـــه. كأنهمـــا أخوان. أطارد التفاصيل الصغيرة كما أطارد الفراشات ناســـياً أن الماء والمعلبـــات والعـــصائر والـــسجائر وبطاريـــات الـــصوت والشرائط أوشكت على النفاد ولم يأتِ فريقي بعد.

لم أعد أذكر كم من الزمن مرّ وأنا أنتظر الموت عطـــشاً، ولا متى نفدت البطاريات ولا شرائط التسجيل، ولا متى كفَّ هـــاتفي عن الإرسال والاستقبال. شغلتني التفاصيل فلم أنتبه إلـــى أن كـــل شيء ينفد من تحت يدي، وكان عليّ أن أحاول الاتـــصال مبكـــراً بزملائي في البعثة أو من بعثات أخرى، لكن ارتفاع الموقع الذي أشرف منه على المشهد كله، والمؤن التي كانت معـــي، وســـحر المنظر العام هو ما خدعني.

كان عليَّ أن أهبط عن صخرتي العاليـــة وقـــد تـــصورت أن احتمالات الموت القادم لا محالة قد تكون أقل وسط بشر كهـــؤلاء

عنها فوق الصخرة. هبطت ففقدت الاتجاهات. تلاشــت الحــشود التي كانت قريبة بالمنظار، وبدا الموقف ــ وأنا أغوص بالرمــال ــ أشبه بمتاهة، وخيّم شبح الموت أكثر من أي وقت مضى عندما رأيت صديقيّ الصغيرين كأنهما نائمان، يحــيط أحــدهما الآخــر بذراعه، والنسور الهائمة تحوّم حولهما، وقد جمــدت ملامحهمــا تماماً، وذيلا جلباباهما الأبيضان ينحسران عن ساقيهما.

كلما اقتربتُ من الماء بعُدَ، وكنت ما أزال أعي أنني بــسيري خلف الماء أبتعد عن الحشود، لكنه العطش. طالت المتاهة، وخُيّل إليّ أنني عدت طالباً، وأنني أنهيت للتوّ دراسة الطب. هل أبحــث عن ماء أم أبحث عن عمل؟ في معمل التحاليــل الطبيــة، قــال صاحبه: كم تريد؟ قلت: أشرب. فاستغنى عن خدماتي ثــم أنــزل زجاجة الماء المثلج عن فمي فارغة. دخلت المحطــة كمــصور متخصص في الطفيليات والكائنات الدقيقة، والتقيت بجليسة أطفال فتزوجتها، ولم تحمل فقلت لطبيبها المعالج: أين الخطأ إذا كان كل شيء جيداً على الشريحة الزجاجية؟ رفع عينه عن المجهر وقال: انظر.. الحركة الأمامية مرتبكة. فقلت: لا، هذا رد فعل طبيعــي، فقد وضعت على حافة الشريحة حاجزاً دقيقاً، فاكتشفته الحيوانات المنوية فارتبكت حركتها تماما. رد فعل طبيعــي، وكــان عليــه مراعاة أن العينة على شريحة وليست فــي موضــعها الطبيعــي

المؤهل لاحتضان هذه الحيوانات وتوفير الغذاء لها، ذلك الموضع الذي يوفر لها حياة إضافية قد تمتد إلي أربع وعشرين ساعة، وبدلاً من أن يبحث عن إجابة لسؤالي المعلق، أوعز إلي صاحب المعمل بالاستغناء عن خدماتي. ظل طبيب زوجتي الممتعض دائماً من حُبّي للتفاصيل، يؤكد أن امرأة بهذه الأنوثة، وهذا الانتظام في الدورة الذي تضبط عليه ساعتك، وتلك الأنابيب السالكة، لا يمكن أن يكون السبب منها، وأوصاني بعدم مغادرة البيت في اليوم الرابع عشر من بداية حيضها، لكنها بالرغم من ذلك لم تحمل. رافقت بعثات علمية وتليفزيونية في مناطق كثيرة، ولم يعد سوى التليفون الذي يربطني بجليسة الأطفال.

على أحجار كبيرة ملقاة وسط الرمال، كعلامات طريق متعرجة وأحياناً مستقيمة، كنت أتنقل من حجر إلي آخر. أتعب وأستريح وسط الهجير على أحد هذه الحجارة الصخرية، حتى فزعت حين دققت النظر فرأيتُ ذراعاً يأتي من تحت الأحجار. قمت فزِعاً حتى أنني سمعتُ بأذني هذه تأوهات قادمة في نهاية الأحجار.

قبل أن أنتبه إلى حشدهم المنتصب، كانوا يصبون نقاط الماء بحذر في فمي كي لا أموت، بدا كأن ما رأيته ــ قبل هذه النقاط ــ كان حلماً، غير أنني وجدت نفسي على شفا حفرة خالية

وحجر، وهم يتفاوضون بشأني. وحين شعرت بلمس القطرات لفمي، انتبهت ونظرت إليهم، ففرحوا جميعاً وأخذوني بعيداً عن الحفرة، وكانوا يتهجدون ويصرخون كأن معجزة حدثت.

فيما بدا أنني تماثلت للشفاء، كانوا يضعون بفمي بعض الأعشاب الخضراء، وبعض حبيبات شعير، ويحتشدون حولي باستغراب. لا يفزعني من بعيد سوى أصوات القصف التي لم تعد تلفت حتى انتباه الأطفال ذوي الجلابيب القصيرة، أو تؤثر على برامجهم اليومية وهم ينتظمون حول معلمهم المعمّر في دائرة، يحفّظهم بلغتهم المحلية نصوصاً دينية يرددونها خلفه. بعدها ينطلقون في سباق من نقطة بعيدة حتى معلمهم، وذيول جلابيبهم البيضاء ترفرف أعلى سيقانهم الحافية على رمال حامية. كنت بينهم أرتدي الجلباب الفضفاض. أغطي رأسي بهذا الغطاء الأبيض، وأصفق بحماس وسط جموع الواقفين للمتسابقين الفائزين. لا أنتفض رعباً إلا حين يأتي القصف، فيطمئنني المعلم الذي بدا كشيخ قبيلة، ويسند ذراعه على كتفي وبيده الأخرى العصا. استمر السباق لفترة طويلة، حتى اكتشفت أنه يناولني العصا، ويرفع يده عن كتفي في كل مرة ليصفق وينطق باسم الفائز قبل أن ينتهي السباق. وحين اقتربت ببصري من ملامحه مستغرباً من حدة بصره، فاجأتني عيناه المطفأتان.

الفهرس

القسم الأول

القسم الثاني

محمد إبراهيم طه

ــ قاص وروائي، من مواليد مركز بنها، القليوبية في ١٩٦٣.
ــ يعمل طبيباً لأمراض النساء والتوليد بمستشفى بنها التعليمي.
ــ عضو اتحاد الكتاب ونادي القصة وجمعية الأدباء.

ــ صدر له:

ــ توتة مائلة علي نهر، قصص ، هيئة قصور الثقافة ١٩٩٨.
طبعة ثانية عن مكتبة الأسرة ٢٠٠٢.
ــ سقوط النوار، رواية، طبعة أولى، هيئة قصور الثقافة ٢٠٠١.
طبعة ثانية، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات.
طبعة ثالثة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٤.
ــ العابرون، رواية، دار الهلال، نوفمبر ٢٠٠٥
ــ فاز بجائزة الشارقة للرواية عام٢٠٠٠.
ــ فاز بجائزة الدولـــة التـــشجيعية فـــي الآداب عـــام ٢٠٠١ عـــن مجموعته: "توتة مائلة على نهر".